٢

كتاب التحرير السياسى

آسيا المعاصرة

يقظة العملاق

الجزء الأول

تأليف
البروفسور رودميين

ترجمة :
يوسف صبري - عاطف الغمري

٢
كتاب التحرير
السياسى

آسيا المعاصرة
يقظة العملاق

تأليف :
البروفسور روميين
ترجمة :
يوسف صبرى - عاطف الغمرى

تصدر عن دار التحرير
للطباعة والنشر

رئيس مجلس الادارة
كمال الحناوى

سلسلة كتاب التحرير السياسى

اشراف وتقديم
عبد العزيز فهمى



الرئيس جمال عبد الناصر

« ان شعبنا لم يدخر جهدا فى سعيه نحو السلام »

« وان السعى نحو السلام قاد خطى شعبنا الى مراكز دولية أصبحت لها الآن من قوة الاشعاع ما يضىء الطريق نحو السلام »

« ان شعبنا يمد نواياه المعززة بالاعمال المحققة للتعاون الدولى عبر كل المحيطات والى كل الاقطار .. واذا كان شعبنا يؤمن بوحدة عربية ، فهو يؤمن بجامعة افريقية ، ويؤمن بتضامن أسيوى افريقى .. يؤمن بتجمع من أجل السلام يضم جهود الذين ترتبط مصالحهم به .. »

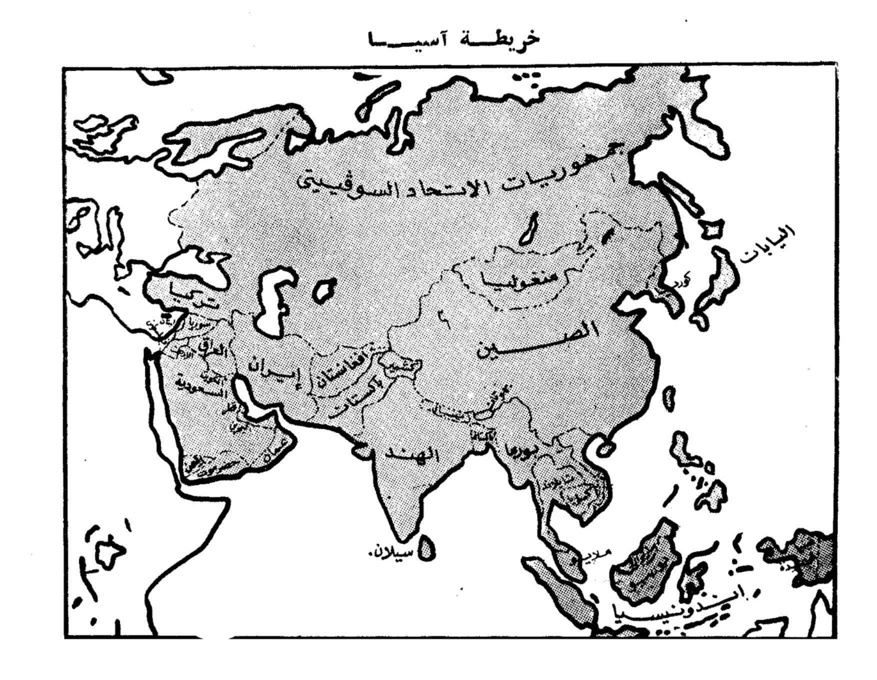
« ان شعبنا يعيش على الباب الشمالى الشرقى لأفريقيا المناضلة وهو لا يستطيع أن يعيش فى عزلة عن تطورها السياسى والاجتماعى والاقتصادى »

« ان شعبنا ينتمى الى القارتين اللتين تدور فيهما الآن أعظم معارك التحرير وهو أبرز سمات القرن العشرين »

من الميثاق الوطنى ــ ٢١ مايو ١٩٦٢

فهـــرس

خريطة آسيا


جمهوريات الاتحاد السوفييتي
منغوليا
الصين
اليابان
كوريا
تركيا
سوريا
العراق
السعودية
إيران
أفغانستان
باكستان
الهند
بورما
عمان
سيلان
ملايو
إندونيسيا

هذا الكتاب

بقلم

عبد العزيز فهمى

عندما شرعنا فى اصدار سلسلة كتاب التحرير السياسى كان من اول ماخطر لنا ان نقدم لقراء اللغة العربية عدة كتب تتناول بلدان القارة الآسيوية وشعوبها وحضاراتها وثوراتها واوضاعها واتجاهاتها ومشاكلها وسياساتها .

وكان من بين الاسباب العديدة التى دفعتنا الى مثل هذا الاتجاه ، ان آسيا هى القارة التى تضم اكبر عدد من الدول العربية ، وأن هذه القارة ارتبطت فى حضاراتها وثوراتها وكل شئونها وتطوراتها القديمة والحديثة بقارتنا الافريقية ، وتماثلت معها فى كثير جدا من الظروف والاحوال والاوضاع والاتجاهات ، وجعل هذا التماثل بين القارتين أوجب واجبات المواطن الحديث فى قارتنا الافريقية وفى بلادنا العربية أن يكون على معرفة واعية بمادار ومايدور فى القارة الآسيوية من تطورات حاسمة .

ولقد كنا ندرك صعوبة هذه المهمة ، لما هو معروف من قلة ماكتب عن آسيا المعاصرة من مؤلفات تاريخية ، أمينة فى اللغات الاوربية ، ومن اقتصار معظم ما كتب عن هذه الموضوعات على جوانب محددة قلما يكون بينها نوع من الترابط او الاكتمال .

الا اننا حين وجدنا هـــذا الكتاب الذى الفه البروفسور رومين المؤرخ الهولندى بلغته ثم ترجم الى لغات اوربية متعددة ، احسسنا انه نوع الكتاب الذى يمكن أن يقدم لقراء اللغة العربية عن آسيا ، بل ونموذج البحث العلمى المكتمل ، فى اى شان من شئون العالم المعاصر .

فهو على مافيه من امانة علمية ، ودقـــة فى البحث والتاريخ ، ياخذ القارة الآسيوية كوحدة جغرافية وسياسية وتاريخية ، ويفصل القول فى بلدانها واجزائها على ســبيل التبسيط والتبويب ، ولــكنه يحتفظ على الدوام لشعوب القارة بوحدتها القومية والتاريخية .

وسيلمس القارىء اثناء اطلاعه على احداث التاريخ الآسيوى ، التشابه الوثيق بين هذه الاحداث ، والتقارب الشديد بينها فى التواريخ والوقائع ، وسيتبين أن سلوك الشعوب الآسيوية فى كفاحها ضد الاستعمار الاجنبى والرجعيات المحلية وفى سعيها الى نماذج متفاوتة من الانظمة الاجتماعيــة على طريق الاشتراكية ، كان ولا يزال يحمل طوابع متفقة الملامح والتكوينات .

ولا حاجة بنا الى القول ان القارىء قد يختلف مع مؤلف الكتاب فى تقييمه لبعض الامور التى تناولها ، ولكنه سيجد ان الجهد الكبير الذى بذله فى جميع ماتضمنه كتابه الضــخم عن آســيا المعاصرة من معلومات وتواريخ وان ماقدمه من صور متلاحقة تصور الحياة الاجتماعيــة والسياسية لهذه القارة والهائلة ، عبر قرون عديدة من الزمن ، جــدير كله بالتقدير والتامل ، خاصة وانه بنظرته العلمية والاشتراكية ، للتاريخ سعى بصدق وامانة الى انصاف الشعوب الآسيوية وتقديم قضاياها وتطوراتها واتجاهاتها بطريقة موضوعية وايجابية .

واذا كان المؤلف قد تنـــاول القارة الآسيوية كوحدة شاملة ، فانه يعنينا أن نشير فى هذه المقدمة السريعة الى انه عنى فى الاجزاء الخاصة بالبلاد العربية باعطاء صورة واضحة لتطور البلاد العربية وسعيها الى تحقيق وحدتها القومية ، وهى صورة جديرة حقا بالالتفات والتامل ، لما فيها من ملامح بارزة ومعالم كاشفة .

وبعـــد فان هذه الموسوعة التى نقدمها لقراء اللغة العربية فى ستة اجزاء من كتاب التحرير السياسى ، اكبر من ان تلخص فى كلمات او تقدر فى سطور .. ولهذا نتركها بين أيدى القراء ، واثقين انها جهد ايجابى فى التعريف بآسيا المعاصرة ، وبكل مالها من تاريخ وحضارة فى الماضى والحاضر .

عبد العزيز فهمى

تمهيـــد

بقلم ك٠م٠ بانيكار

لم يكن هناك حتى فترة السيطرة الاوربية على آســـيا تاريخ آسيوى بالمعنى المحدد لهذه الكلمة .

كانت آسيا تتألف من ثلاث مناطق : الاسلامية ، الهندوبوذية ، والسينيكية ، وكل منها قارة كاملة .

واذ كان يفصل هذه المناطق بعضها عن بعض صحارى شاسعة ، وجبال منيعة ، فان العلاقات بين هذه المناطق كانت محـــــدودة ومتقطعة .

ولقد كانت السيطرة التى مارستها دول الغرب على هذه المناطق الاسيوية فى القرن التاسع عشر والنصف الاول من القـــــرن العشرين مما هيأ للتطورات السياسية فى اسيا وحدة تؤهلها لان تعتبر مرحلة حاسمة فى التاريخ .

وفى خارج هذه المناطق الثقافية العريضة ، تمتد سهول سيبريا التى لم تدخل لوقت طويل فى تاريخ الشعوب الاسيوية .

وان يكن هـــذا النصف الشمالى من القارة بدأ منـــذ اجتاح يارماك تيموفيفتش خانات سيبر ، عبر جبال الأورال يدخل تدريجا فى التاريخ باسم سيبريا ، فانه لم يحدث الا فى القرن التاسع عشر ان بدات الحركة السكانية الكبيرة التى قدر لها ان تحول آســـيا الشمالية الى منطقة ثقافية جديدة تتخذ أبعادا كبيرة .

ولم تصبح الجمهوريات السوفيتية الموجـودة فى الاتحـــاد

السوفييتى وحدة رابعة مكملة للقارة الاسيوية الا بعد الثـــــورة الروسية .

وهكذا فان القـــارة الاسيوية لم تحقق ما يمكن أن يسمى نمطا للتاريخ الآسيوى الا فى القرن التاسع عشر عندما خضعت القارة كلها للسيطرة الاوروبية من الاورال حتى المحيط الهـــــادى ومن القطب الشمالى حتى المحيط الهندى .

ولا يعنى هذا بالطبع القول بأن الثقافات الآسيوية العظيمة ؛ لم يكن لها من قبل تاريخ مستقل أو انها لم تساهم فى التيار العام للرقى العالمى .

فقد كان للشعوب الاسلامية كما كان لشـــعب الصين تراث تاريخى متطور لا يقل فى أهميته عن تراث التطور فى أوربا .

وكان المؤرخون الصينيون والاسلاميون مثل المؤرخين الاوربيين لا يعنيهم من شئون بقية العالم الا ما يمس التطور الخاص لبلادهم

ولم يبد ان هناك تغييرا واضحا الا فى القرن التاسع عشر .

وقد كانت سيطرة الغرب على آسيا « بما فيه روســـــيا وامريكا » مما اعطى العالم احساسا بالوحدة وبدأ الباحثـــــون الغربيون يشغلون أنفسهم بتواريخ البلدان الآسيوية .

وكان ينظر الى هذه البلدان فى بداية الامر باعتبـارها زوائد لاحقة بأوربا أو كما لاحظ أحد كبار المؤرخين الاوربيين :

« حتى البلاد التى لها تاريخ هام مدعم بالوثائق مثل تاريخ فارس والصين لم تكن موضع اهتمام الا فى نطاق ما حدث فى هذه البلدان عندما حاول الاوربيون الاستيلاء عليها » (١)

ولكن الوضع بدأ يتغير عندما أخذت بلدان آسيا من خـــلال

(١) « ماهو التاريخ » لمؤلفه كار .

عملية مزدوجة قوامها تمثل الافكار من ناحية ، ومقاومة القوى الغربية ، تظهر فى منتصف القرن العشرين كأمم مستقلة .

ولقد كانت اليابان فى النصف الاول من القرن العشرين هى وحدها التى تحسب فى مجال السياسة العالمية كدولة آسيوية مستقلة .

ولكن ما ان اقبل منتصف القرن حتى لم يعد فى آسيا بلد واحد باق تحت سيطرة القوى الاجنبية .

وهكذا صار لتاريخ آسيا وضعه كقسم مستقل فى تاريخ العالم ، لا يستطيع حتى أشد المؤرخين تشبثا بأوربا أن يغفل عنه .

وليس استقلال آسيا وحده ، بل تحول المجتمعات الآسيوية من خلال تمثلها للعلوم والفنون التطبيقية الحديثة هو الذى يعطى لهذه المرحلة من التاريخ الآسيوى أهميتها الخاصة ، وانما كان هذا من غير شك هو نتاج الاحتكاك الهائل الذى لم يحدث بين أوربا وآسيا الا فى القرن التاسع عشر .

وان تكن آسيا وأوربا قد عرفتا بعضهما بعضا منذ آماد بعيدة ، فان هذا التداخل الكبير يعتبر حديث العهد .

ولقد كانت معلومات أوربا عن آسيا قبل القرن التاسع عشر سطحية حقا .

وليس من شك أن الرومان والاغريق كانوا على معرفة وثيقة بغرب آسيا ، بل ان الاسكندر الاكبر وصل الى حدود الهند الراهنة .

ويبدو أن المراكب التجارية الرومانية قد بلغت جنوب الصين . ولكن مثل هذه المعرفة عن الشعوب والحضارات كما تدل عليها هذه الالوان من النشاط كانت سطحية ، وغامضة .

ولقد يبدو صحيحا أيضا ان فكرة ما عن المعتقدات الدينية

وعن الفلسفات الهندية قد نفذت الى الغــرب فى القرن الثــانى الميلادى ، يشهد على ذلك ملخص واف للمذاهب الفلسفية الهندية مدون فى مؤلف لاتينى ظهر فى تلك الفترة ونشر فى روما بعنــوان « تفنيد الهرطقات » .

كما أن كلا من « الروماكاسيدهانتا » والمدرسة الرومانيةللعلوم الفلكية الهندية تشهد على حد سواء بتأثير الغرب فى الهند فى تلك الفترة المبكرة .

ولقد تدهور اهتمام روما بالتجارة مع الشرق بعد الغــزوات البربرية .. وفى أوائل العصور الوسطى لم يكن فى أوربا الا قــدر ضئيل جدا من الاهتمام بآسيا .

وظهر التحدى الكبير للمسيحية واوربا فى القرن الســابع فى غرب آسيا وكان العالم الاسلامى الذى يمتد حينذاك من فارس الى أسبانيا بمثابة سد منيع يحول بين أوربا وبقية آســـيا ولم يستطع الغرب أن يلتف حوله الا عندما وصــل فاسكو داجاما الى كاليكتا سنة ١٤٩٨ .

وكانت الدول الاوربية تنظر الى آســيا الاسلامية كمنطقــة معادية .

ومع ان الاسلام كأن له خلال أواخر العصور الوسطى تأثير كبير على التطور الثقافى لاوربا ، فانه اثبت أيضا أنه كان حاجزا فعــالا يحول بين قيام علاقات أوثق بين آسيا والغرب .

وهكذا وصل الجهل بشئون آسيا حتى ان الاسقفمونتكورفينو مكث بضعة أشهر فى جنوب الهند أثناء القرن الثــالث عشر ثم ارسل تقريرا الى روما يقول فيه : « ان شعب الهند لا يعرف من الاعداد الا خمسة فحسب وليس له لغة متطورة ! »

وصحيح أن الكثيرين من المغامرين وقليلين من القسيسين قد

زاروا بلاط الخانات العظـام وان ماركو بولو كتب عن عجـائب الصين بعد سنوات عديدة قضاها فى امبراطورية « كوبلاى خان » ولكن قد يكون من الخطأ الاستدلال من هذا على أن الدول الاوربية لم يكن لديها الا افكار غامضة عن آسيا .

فان اوصاف ماركو بولو للصين لم تكن ترفض لقيمتهاالسطحية فحسب بل كانت تعتبر اسرافا فى الخيال .

ولم تؤخذ كتابات ماركو بولو بالاعتبار الكافى الا عندما صـار لاوربا معرفة أكبر بالصين خلال الصلات المباشرة بعد ذلك بقرون عـدة ..

ويمكن أن نتبين ماكان عند أوربا من تصور غامض عن بلدان آسيا من أفكار كتاب القرون الوسطى عن مملـكة يوحنا المسيحية فقد قيل انها تقع وراء جبال الفرس ، وقيل فى احيان أخرى أنهـا هى امبراطورية التتار .

ولقد أرسلت بعثات المبشرين الاولى الى بلاط الخاناتاعتقادا بأن الملك مسيحى يستطيع الغرب أن يعقد معه حلفا لكسر شوكة الاسلام ومن ثم استرجاع الاراضى المقدسة وفى الوقت نفسـه ازالة الخطر عن المسيحية !

والحق أنه رغم العدد الكبير من الرحالة الاوربيين الذين زاروا البلدان المختلفة فى الشرق ، كان ما يعرف فى أوربا عن شـعوب آسيا غير الاسلامية حينذاك قليلا لايجاوز أن التـوابل تأتى من الهند وأن الحرير يأتى من الصين .

ومع اكتشاف فاسكو داجاما الطريق البحـرى الى الشرق ودخول السفن البرتغالية المحيط الهادى عبر مضيق ملقا ، بدأ أول لقاء حقيقى بين اوربا وآسيا .

وصارت المراكب البرتغالية تنتقل ما بين بحر اليابان وموانىء

البحر الاحمر وتقيم مراكز تجارية فى ماكاو ـ ملقا ـ كولومبو ـ جوا ـ ومناطق ساحلية أخرى .

وبينما كان البرتغاليون يسيطرون على الملاحة فى المياه الآسيوية ويتمتعون من الناحية العملية باحتكار التجارة بين آسيا واوربا ، فمن الخطأ أن يظن أن رحلات البرتغاليين واجهت آسيا وأوربا بعضهما ببعض .

فانهم كانوا يقيمون مراكزهم التجارية على الدروب الساحلية لا غير ، بل ان جهودهم التبشيرية اقتصرت على فئات الصيادين المنتشرين على السواحل .

ولم تجاوز ذلك الى حد ما الا فى اليابان ، ولم يبذلوا اى جهد لفهم الشعوب الاسيوية .

وفى القرن التالى تبعت الرواد البرتغاليين جماعات الانجليز والهولنديين والفرنسيين ولكنهم بدورهم ظلوا لمدة قرن ونصف قرن لا يحققون اى تلاق حقيقى بين آسيا واوربا .

وكانت الامبراطورية المغولية فى الهند ، وامبراطورية مانشو فى الصين فى أوج سلطانهما ، بينما كانت تركيا التى تحكم اقاليم الشرق الاوسط الشاسعة تعد دولة كبرى حتى جاء الامير يوجين فى أوائل القرن الثامن عشر ووجه الى الامبراطورية العثمانية أول ضربة خطرة فى وادى الدانوب .

وكانت روسيا وحدها من بين الدول الاوربية هى التى امتدت بسلطانها الى سهول سيبريا الخالية حتى اشرفت على المحيط الهادى .

ولقد شهد القرن الثامن عشر نشوء اهتمام أوربا لاول مرة بمجتمعات آسيا وحضاراتها .. وفى تلك الفترة كشف العمل الذى قام به جماعة المبشرين الجيزويت فى الصين لجمهور الاوربيين جلال الحضارة الصينية .

وفى نهاية القرن تمكن سير وليام جونز ، وتشارلز ويلكنز ، وكولبروك وغيرهم من فتح مغاليق اللغة السنسكريتية وآدابها وشرعوا فى تقديم ترجمات جعلت الغرب يألف التأملات الفلسفية للهنود .

على انه من الضرورى ان نؤكد انه فى هذه الفترة كانت العملية كلها من جانب واحد .. ففيما عدا قلة قليلة من المثقفين فى كلكتا الذين استطاع المبشرون أن يثيروا فيهم بعض الاهتمام بالديانة المسيحية لم يكن فى الهند أو الصين أى اهتمام بأوربا وشعوبها .

ويمكن التعرف على مدى هذا الجهل بشئون أوربا من الخطاب الشهير الذى أرسله مستشار الامبراطور لين الى الملكة فيكتوريا أثناء حرب الافيون ، وهو حينذاك من أفضل الساسة تعلما وتحررا فان الملكة البريطانية التى كانت سفنها الحربية تهدد الامبراطورية السماوية لم تكن عنده سوى زعيمة قبيلة فى المناطق الخارجية .

أما شعب الهند فانه بخبرته التى استمرت ما يزيد عن قرن ، كان لديه فكرة افضل عن قوة الدول الاوربية ، ولكن لايمكن القول انه كان لديه فكرة أوضح عن مصادر القوة الاوربية .

ولم يكن هذا يعنى انهم على دراية حقيقية بالقوى الكامنة وراء أوربا .

ان التطورات التى حدثت فى العلوم والفنون التطبيقية خلال القرن الثامن عشر واحدثت ثورة فى الحياة الاوربية وزودت الدول الغربية بالقوة الاقتصادية والحربية الكافية للسيطرة على اقوى الدول الآسيوية واستغلال مواردها الطبيعية ، لم تكن تثير فى الصينيين أو الهنود أى اهتمام أو رغبة للاستطلاع .

ويسجل التاريخ أن المفاوضين الصينيين الذين عهد اليهم بمحادثات معاهدة نانكين بعد الحرب الصينية الاولى حين أخذوا

لزيارة السفن الحربيـــة البريطانية أعتقدوا أن الذى يدير عجلاتها ثيران مخبأة فى بطونها .

وكانت اليابان هى التى قدمت الاستثناء الوحيد من هـــذا النقص الشامل فى التعرف الى مصادر القوة الاوربية فان جماعـة مشهورة من الباحثين عرفت باسم جماعة رانجكوشا ظلت تعمـل باصرار بطولى للتمكن عن طريق معرفتهم باللغة الهولندية من احدث المعارف العلمية فى أوربا .

ولقد استمروا فى بحثهم لمدة قرن ونصف قرن حتى أن اشـد الحكام « الشانجويت » رجعية وقد أيقظه الوضع المتغير بعـــد هزيمة الصين فى حرب الافيون ، استطاع القيام بتحقيق جاد فى اسباب انتصار البريطانيين .

ولقد كانت الحركة الوطنية التى ادت فىاليابان الىاعادة عصر ميبجى نتيجة لتحقق الشعب اليابانى من الطبيعة الحقيقية للخطر الذى تواجهه .

ان السيطرة الغربية على آسيا كما اوضح البروفسور رومين بحق كانت قد تمت بحلول سنة ١٨٥٠ ، وخلال ما يزيد عن نصف القرن التالى كانت الامم الآسيوية العظيمة كلها فيما عدا اليـــابان تعانى حالة عجز شديد .

ففى الهند لم يكن المؤتمر الوطنى الهندى الذى قام سنة ١٨٨٥ يطلب شيئا أكثر من اصلاحات ادارية طفيفة ، ومشاركة محدودة مع البريطانيين فى حكم البلاد .

وواقع الامر أن زعماء الحركة الوطنية فى الهند لم يكونوا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر يرغبون فى الاستقلال ، بل كانوا يميلون الى الاعتقاد بأن الحكم البريطانى فى الهند منحة من العناية الالهية الخيرة .

وكان الاحساس بالعجز السياسى فى مواجهة سيطرة برابرة الغرب ينتشر بالمثل فى الصين .

ولقد عبر عن ذلك خطاب أرسله نائب الملك الى الامبراطورة أثناء ثورة البوكسر ، اذ أبدى لى هونج تشانج اعتقاده بأن المقاومة للسلطة الغربية كانت أسوأ من العدم فى ذلك الوقت ، وانه حتى تتغير الظروف يعتبر التعاون مع الدول الامبريالية هو أنفع الطرق التى يمكن اتباعها .

والحقيقة الهامة فى العقدين الاخيرين من القرن التاسع عشر هى اكتشاف آسيا لاوربا .

فان أعدادا متزايدة من شباب الهند والصين بدأت تتدفق على بريطانيا للدراسة ، كما توافد الطلبة من الشرق الاوسط الى باريس وأخذت جامعات المانيا تجتذب أولئك الذين كانت وطنيتهم تجعلهم غير مرغوبين فى لندن وباريس .

وكانت بداية الصناعة على نطاق واسع فى شنغهاى وكالكتا وبومباى مما عرف الآسيويين طرائق التنظيم الصناعى الحديث .

وان يكن اكتشاف الاسيويين لاوربا لم يحدث الا أواخر القرن التاسع عشر فان أهميته لم تظهر الا خلال القرن العشرين .

ويمكن أن يقال ان الحركة الجديدة التى قدر لها أن تنتهى بانسحاب الدول الاوربية من آسيا ، وان تشهد قيام الدول الكبرى فى القارة فى عهد ثورى كتب لها أن تقوم بتحويل مجتمعاتها القديمة ونقلها الى عصر العلم والفنون التطبيقية قد بدأت سنة ١٩٠٢ .

وكما يقول أ . هـ . كار مؤرخ الثورة الروسية : « ان القصة تبدأ بالتحالف اليابانى البريطانى سنة ١٩٠٢ وادخال بلد آسيوى لاول مرة الى دائرة الدول الاوربية الكبرى » .

ولربما اعتبر من قبيل المصادفة ان اليابان اعطت علامة على

رقيها بتحديها لروسيا وهزيمتها وانهـــا حين فعلت ذلك اشعلت الفتيل الذى فجر الثورة الكبرى فى القرن العشرين .

ولم تكن ثورة القرن العشرين فى آسيا مجرد انتفاضةسياسية كما يميل الكثيرون الى الاعتقاد ، فمنذ بداياتها الاولى كان لهـــا ثلاثة جوانب :

الاستقلال السياسى ـ التمكن من العلم والفنون التطبيقيـة ـ التغيير الاجتماعى .

وجدير بالذكر والتأكيد أن الاضـــــطرابات السياسية التى أعقبت تقسيم البنغال (١٩٠٥) كان من بين أهدافها الكبرى تعميم العلوم والفنون التطبيقية .

ان كلية الهندسة فى « جادافبور » التى أصبحت اليوم جامعة كاملة أنشأها فى ذلك الوقت مجلس التعليم الوطنى فى البنغال ، ويمكن القول بأن هذا كان أول علامات يقظة الوعى القومى واتجاهه الى قيم العلم الحديث .

كذلك كان تأسيس « المعهد الهندى » على أيدى جامشيد جى تاتا سنة ١٩٠٩ كمركز للدراسات والبحوث العلمية العليا حصيلة ادراكه للعلاقات المتكاملة بين العلم والصناعة .

اما الجانب الثانى لهذه الثورة الثلاثية وهو تحويل المجتمعات الشرقية القديمة المؤلفة من طبقات متعددة ، المستعصية فيمـا يبدو على التغيير فقد بدأ فى هذه الفترة أيضا .

ان هذا التحول لم يتم حتى الآن ولكن حركة ٥ مايو التى قام بها الطلبة فى الصين تحت شعار « فليسقط كونفشيوس » كمـــا ان حركة غاندى التى استهدفت الغاء حركة المنبوذين وجعلها احدى النقط الرئيسية فى برنامجه السياسى وكذلك حركة تحرير المرأة التى قامت بها الاميرة كارتينى فى اندونيسيا ، كانت كلها علامات لا تخطىء لهذه الثورة الكبرى .

كذلك كانت الاصلاحات التى قام بها « راما السابع » فى سيام لتجديد الحياة الاجتماعية فى تلك المملكة والاجراءات الأكثر تطرفا التى قام بها أتاتورك وأحل بها مكان القوانين القديمة قوانين جديدة مستعارة من أوربا والاصلاحات العقيمة التى قام بها أمان الله فى أفغانستان كلها دلائل على إن حركة التغيير الاجتماعى كأساس ضرورى للتحرر السياسى كانت احدى السمات الرئيسية لهذه الفترة من تاريخ آسيا •

ان هذا البرنامج الذى يستهدف أحداث التغيير الاجتماعى مثله فى ذلك مثل التثقيف بالعلوم والفنون التطبيقية يعتبر حركة مستمرة •

ففى معظم بلدان آسيا كان التحرر السياسى بمثابة دافع الى التغيرات الاجتماعية الكبرى •• وفى الصين كان الدفع الثورى للشيوعية عنيفا فى اقتلاع جذور البناء الاجتماعى القديم الموروث ويعتبر الجهد الراهن لاحلال بناء اجتماعى جديد مكانه قائم على أساس الشيوعية والتعاليم الماركسية اللينينية وأفكار ماو جزءا لا يتجزأ من حركة ثورية مستمرة •

وفى الهند كان الجهد موجها الى تحويل المجتمع بالأسلوب التشريعى المؤيد بتغيير فى توزيع الثروات وتقاسم السلطة السياسية بين كل الطبقات •

وكانت أصوات الناخبين البالغين أداة للفوران الاجتماعى كما هى فى الوقت نفسه أداة سياسية •• ولا يقل عن ذلك أهمية ذلك التحول الاجتماعى السلمى فى اليابان خلال الخمسة عشر عاما التى أعقبت هزيمتها فى الحرب الكبرى •

ولقد كانت حركة اعادة « الميیجى » بكل نتائجها البراقة تمثل فى جوهرها حركة ثورية محافظة توجه اهتمامها الى ديناميكية

السياسة والقوة الصناعية والعسكرية واستخدام العلم والفنون التطبيقية لهذا الغرض أكثر مما توجهه الى التقدم الاجتماعى •

كذلك شهدت فترة ما بعد الحرب الثورة الثانية التى كانت فى بعض جوانبها أهم من الاولى لأنها كانت تمثل فورة شعبية وتغييرا اجتماعيا لأسس المجتمع اليابانى لم تحاوله حركة اعادة الميبجى ••

ان التطور المنطقى لحركة اعادة الميبجى الى التحالف بين دوائر الأعمال الكبرى والعسكرية اليابانية ، أبعد اليابان عن الاتجاه العام للتاريخ الآسيوى فى الفترة التى سبقت هزيمتها فى الحرب الكبرى ••

وكان ذلك ثمنا غاليا اضطرت الى دفعه ، ولكن ما من أحد راقب النموذج البارز لآسيا ينكر ان اليابان بعد الحرب تمثل ظاهرة على أكبر قدر من الأهمية فى آسيا الجديدة •

وهناك عاملان ساهما فى هذه الثورة المستمرة فى الجوانب الاجتماعية والاقتصادية :

أولهما ـ هو رد الفعل على السيطرة الأجنبية ، ولم تكن الرغبة تتجه كثيرا الى تقليد الأجناس الامبريالية بل الى اثبات أن الشعوب التى أخضعت بالأمس تستطيع اذا ما أعطيت الفرصة للتجديد ولاستيعاب العلوم والفنون التطبيقية الجديدة أن تقف على قدم المساواة مع حكامها السابقين •

وثانيهما ـ كان هو التأثير المباشر للثورة الروسية والمنجزات العلمية والصناعية لروسيا السوفييتية ••

ان الثورة الاجتماعية والاقتصادية فيما يزيد عن ثلثى مساحة آسيا ، ونصف سكانها بما فى ذلك سيبيريا ، جمهوريات الاتحاد

السوفييتى فى آسيا الوسطى، منغوليا ، الصين، كوريا الشمالية، فيتنام الشمالية ، تمثل الايديولوجية الماركسية ، وتقدم النموذج الصناعى الاجتماعى للمجتمع الشيوعى •

وهذه حقيقة لا يستطيع الدارسون لشئون آسيا اغفالها •

فان أكثر من٧٥٠ مليونا، منهم ٦٥٠ مليونا فى الصين وحدها وهذا ما يوازى نصف عدد سكان آسيا كلها ، يتبعون الطريقة الشيوعية وانه لواضح جدا بما لا يدع سبيلا للانكار ان هذه الطريقة أنشأت فى الصين وكوريا الشمالية وفيتنام الشمالية خلال الخمسة عشر عاما الماضية وضعا جديدا لم يسبق له مثيل فى الحياة الاجتماعية والنمو الاقتصادى مرجعهما النفوذ الديناميكى للشيوعية وللقوة السوفييتية •

ولكن العالم الخارجى فى اعترافه بالأهمية البعيدة المدى للثورة الشيوعية فى الصين وكوريا الشمالية وفيتنام الشمالية اتجه الى اغفال التطورات فى جمهوريات آسيا السوفييتية •

فاليوم يقال ان تعداد سكان سيبيريا أصبح حوالى ٢٥ مليون نسمة أغلبهم من أصل روسى •• كما ان الخطط الجديدة لاستصلاح الأراضى البكر وتنمية موارد القوى فى هذه المساحات الشاسعة سيؤدى قطعا الى نمو سريع فى عدد السكان •

والحق ان تحويل سيبيريا خلال الاربعين سنة الاخيرة لا يماثله فى الأهمية الا غزو البرارى الغربية فى الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر •

وليس من شك أن ما حدث فى سيبيريا أضاف أبعادا جديدة الى تاريخ آسيا بطريقة لم يدركها بعد الكثيرون من كتاب الغرب•

ان هذه الحقيقة حين ينظر اليها على ضوء عودة دول آسيا الوسطى القديمة الى الظهور وتحولها الى الشكل السوفييتى الحديث

فان من يدرس تاريخ آسيا الجديدة لا يستطيع اغفال التحـــول البطيء المستمر الذى يطرأ على موازين الامور فى القارة الآسيوية •

وهكذا لن يمكن النظر الى تاريخ آسيا فى القرن العشرين كما كان ينظر اليه من زاوية تأثيره على مصـــالح دول الغرب ووجوه نشاطها ، فقد أصبحت له دلالة عالمية أوجبت الاعتراف به كجزء من التيار العالمى للتطور الانسانى •

ولكن من أسف أن لم يسبق الاستاذ رومين أى مؤرخ أوربى معروف فى عرض المسألة برمتها وأبعادها الحقيقية •

فقد كانت هناك دراسات اجماليه عن علاقات أوربا بالمنـاطق الآسيوية المختلفة والشرق الأوســط وجنوب الصين وجنوبيهـــا الشرقى ، والصين واليابان والشرق الاقصى •

كما كانت هناك أيضا محاولات قام بها بعض الباحثين لتقييم التطورات الجارية فى آسيا السوفييتية •

ولكن فيما أعلم فان كتاب الأستاذ رومين يعتبر الأول الذى شمل آسيا كلها وربط بين الحضارات الثلاث القديمة فى القــارة وبين الصورة الجديدة لآسيا السوفييتية •

ان الاستاذ رومين أحد المؤرخين الكبار فى هولندة ومن بيـن أعماله الكبرى مؤلف من اثنى عشر جزءا عن تاريخ هولندة ودراسة مستفيضة عن التوسع الاوربى بعنوان « العصر الاوربى » كما انه أحد مؤلفى الجزء السادس من « التاريخ الثقافى والعلمى للانسان» الذى أصدرته هيئة اليونسكو • ولا حاجة بنا الى تأكيد ايجابيـــة الأحكام التى يبديها مثل هذا الاستاذ البارز والعروض التى يقدمها للحقائق •

وثمة ما اود أن أؤكده •• وهو الطريقة البارعة التى حاك بها الاستاذ رومين خيوطه المتعددة الألوان وصنع منها قماشا رائـــع التصميم جميل النسيج •

مقدمة المؤلف

فى كتابى عن « العصر الاوربى » رويت قصة انطلاق أوربا من النمط الانسانى العادى الذىكان لايزال سائدا فىكل مكان آخر ، هذا الانطلاق الذى بدأ باليونانيين واستكمل فى عصر النهضة وتم فى عصر التنوير والثورة الصناعية والثورة الفرنسية ، وفيه كما أعتقد يوجد السبب الأخير لسيطرة الاوربيين المؤقتة على آسيا .

ان تاريخ الحركات الوطنية فى البلدان الآسيوية فى القرن العشرين وهو موضوع هذا الكتاب يعتبر الى حد ما استكمالا للعمل السابق وما عرض فيه ، فيقظة آسيا وهذا هو العنوان الذى يطلق عادة على التداخل المعقد للظواهر والاتجاهات والتطورات ـ هى كما كانت فى أوربا ، بداية ظهور هذه العملية الانطلاقية فى آسيا التى كانت فى الأصل وقفا على أوربا وحدها .

فبعد أن صارت آسيا أوربية عادت تكتشف نفسها وفى الوقت نفسه توقفت عملية الانطلاق عن مجرد الانطلاق فى حد ذاته .

ومن ذلك الحين بدأت آسيا تخطو أهم خطواتها الى الأمام على الطريق نحو وحدة الجنس البشرى التى تظهر احتمالاتها الآن بوضوح أمامنا ، وقد أخذ يحل مكان آسيا القديمة التى يمتد تاريخها الى عدة قرون عصر جديد لآسيا .

وهذا التطور يستثير عدة أفكار متنوعة .

فعندما غزا الغرب الشرق كان يتصرف بدوافع أنانية خالصة ولم يكن فى وسع الشرق أن يفعل شيئا سوى محاولة الدفاع عن نفسه ..

ولم تستطع أوربا أو آسيا أن تتوقع ان النتيجة الأخيرة لهذا النزاع ستكون هي العمل على توحيد العـالم • والأمر الذى يغرى الانسان بالتساؤل هو كم من شقاء كان يمكن أن تعفى منه البشرية لو ان الانسان توقع هذه النتيجة وبذل الجهد لتحقيق هذا التطور بالطرق السلمية •

ولقد كان هناك من نددوا بهذا العدوان •• ففى بداية المأساة التى نشهد الآن نهايتها - فى ديسمبر سنة ١٨٨٥ - هاجم جـول ديلافوس النائب الفرنسى ، النظام الامبريالى الجديد فى الهنـــد الصينية - وكان يتحدث فى احدى مناقشات البرلمان عن احتمال انسحاب الفرنسيين من تونكين •

وكان لحـــديثه من الدلالة الهـــامة ما يجعلنى أقتبس بعض عباراته •• قال :

« ان من يسـعى الى استعمار آسيا فانما يحلم بخيالات .. وينشىء بذلك وضعا خطيرا .. فهو لم يقدر تمـام التقـدير ان شعوب آسيا مثل شعوبنا وان لها حضارة أقدم من حضارتنا •• وانها احتفظت بذكراها وتعتز بها •• ولقد قامت هـــذه الشعوب بالغزوات وتعرضت للغزو أيضا وهى تريد الآن ان تعود الى مواصلة الكفاح طلبا للحرية » •

« وليس من العسير التنبؤ بأنه حالما تقع هذه الشعوب تحت تأثير ثقافتنا فانها بفضل الحافز على التحرر الذى يسود العـالم فى كل مكان سرعان ما تتيقظ فى نفوسها تلك الرغبة فى الاستقلال التى تعتبر فى وقت واحد الهدف الأكبر والشرف العظيم لأى شعب لسوف تستثار هذه الشعوب للغضب ولن يكتب لهذا الغضب الا الفوز لأن السمة الخالدة للحرية هو انها تنتصر فى كل مكان •

وانى لواثق انه قبل خمسين عاما لن تكون فى آسيا مستعمرة اوربية واحدة » •

ان هذه الكلمات الخالدة توسع وجهة نظرنا وتعمقها ».

فان من يرفض القوة ويقتصر على ذلك لايتجاوب مع الحقيقة الواقعة وهى ان ما يبدو فى التاريخ شرا غالبا ما يكون خيرا مخبأ وان ما يبدو خيرا يصبح فيما بعد شرا .

وذلك يحدث كثيرا الى حد يوجب التساؤل عما اذا كان هناك طرق أخرى ممكنة بدلا من هذه الطرق المتناقضة ..

والجواب على السؤال عما اذا كان السياسى الفرنسى على صواب أم على خطأ ليس بالأمر البسيط.. فلا شك أنه كان صادقا حين حذرنا من الاستعمار وأخطاره وعندما تبين سبب هذا الخطر فى المساواة الأساسية بين جميع الشعوب .. وكان على صواب فى نبوءته بما سوف تكون عليه النهاية الاخيرة .. ولكن هل كان أيضا على حق حين اقتصر على مجرد رفض الاستعمار واعترف بالمساواة كحقيقة واقعة دون أن يستنبط النتائج المترتبة على ذلك، عندما رغب فى أن يترك آسيا للاسيويين وأوروبا للاوروبيين .. هنا كان مخطئا .. وبدا أنه كان يتطلع الى المستقبل فحسب .. لأنه كرجل عاش فى الماضى .. رفض الحاضر ، ولو أنه تطلع بالفعل الى المستقبل لاقترح قطعا شكلا من أشكال التعاون بين أوروبا وآسيا يمكن أن يكون فى وقت واحد سببا ونتيجة للوحدة المستترة وراء هذه التعارضات ، وتعاون من القوة بحيث يمنع الحروب ويكفل الحرية فى الوقت نفسه ، تعاون فيما كان « هويزينجا » المؤرخ الهولندى الشهير يسميه « عملية أخذ وعطاء » تحل محل عملية الأخذ دون عطاء التى كانت قائمة حينذاك ولاتزال قائمة حتى اليوم .

ولكن أحدا لا يستطيع أن يطلب من أى انسان هذا النوع من استشفاف المستقبل فانه حتى اليوم لا يزال التعاون بين الشرق والغرب أمنية أكثر منه حقيقة .

ان الناس يصنعون تاريخهم الخاص ، وحتى عندما يعرفون أهدافهم فان النتائج النهائية تظل محجوبة عنهم ٠

واذ يستوى الشر والخير ، فان المظهر الخارجى وحده هو الذى يعرف ، أما الحقيقة الكامنة وراءه فلا تعرف ، ولهذا فأن المؤرخ لا يستطيع أن يفعل شيئا سوى أن يقرر ان العداء المتبادل كان أمرا ضروريا حتى يمكن الاعتراف بامكان التعاون ٠

ان الانسان لا يستطيع أن يطرح الماضى الحافل بالمآسى الا تطلعا الى مستقبل أفضل ، وحين يتبين أن وحدة العالم هى الهدف النهائى للنزاع الراهن فى العالم ، وهو ما يصفه هذا الكتاب ، فأنه عندئذ فحسب يستطيع فى كلا الجانبين أن ينسى ٠٠ ويستطيع أيضا ـ وهذا أكثر أهمية ـ أن يغفر ٠

ولهذا فان ما يرغب فيه المؤلف هو أن يفقد كتابه سريعا طابعه الموضوعى الخالص ٠ وليس من سبيل الى انكار هذه الموضوعية ، ولكن المشاكل التى تعنينا أعمق من ذلك بكثير ، فهى أكثر من مجرد طرد السادة الاجانب ، وهذا القدر الأكبر عبر عنه منذ وقت ليس ببعيد « والتر ليبمان » الصحفى الاميركى المعروف وأحد الذين يعرفون الكثير عن عالمنا المعاصر ٠

ففى أثناء زيارة الرئيس سوكارنو للولايات المتحدة عام ١٩٥٦ كتب يقول فى صحفية نيويورك هيرالد تريبيون « ان ما يعطى هذه الثورة ـ وكان يعنى الثورة التى وصفناها فى هذا الكتاب ـ قوتها ومرونتها هو استهدافها ازالة آثار حكم «البيض» الذى استمر ثلاثة قرون ، وفى الوقت نفسه انهاء التخلف الاقتصادى والفنى للمستعمرات السابقة ٠ ولقد أعلن سوكارنو أنه « سيمضى قدما فى هذه الثورة بالطرق الديموقراطية ولكنه أضاف ان أهم شىء عنده هو المضى قدما فى الثورة حتى لو اقتضى الأمر اتخاذ الاساليب الجماعية ٠٠ » واستطرد ليبمان يقول :

ان الثورة مستمرة ـ أو هكذا يبدو ـ ما بين مراكش وفرموزا واليابان ـ وفي هذه المنطقة الهائلة بأكملهـا ـ يقف الغرب موقف الدفاع عن نفسه ، بينما كل المراكز الرئيسية التي لا يزال يحتفظ بها تقع تحت طائلة الهجوم المستمر • وان الانطبـاع الذي يتلقاه الانسان هو أن الغرب يخوض معركة الانسحاب •• انسـحاب الفرنسيين من شمال افريقيـا ـ الانجليز من الشرق الأدنى • والأميركيين من فورموزا •• الخ •

ولسوف يعطي هذا الكتاب تقريرا موجـزا ـ وهو الاول من نوعه فيما يعلم المؤلف ـ عن تطور تاريخي يمكن أن يعتبر فريدا في ثلاثة جوانب » في اتساع مداه وقصر مدته اذا ما قورن بأهميته ونتائجه ••

ومثل هذا التقرير وحده هو الذي يستطيع أن يؤدي لهذا الفرد حقه •• وطبيعي أن يكون في الكتاب عيوب المحـاولة الاولى ••• كل ما يستطيع المؤلف أن يرجوه هو أن يكون فيما قدمه ما يعوض ما فاته ••

ولقد كان من بين الصعاب الكثيرة التي اعترضت طريقنـا اثنتان لا بد وأن يعرف القارىء كيف عالجناهمـا •• الاولى هي تحديد منطقة البحث •• ولقد تركنا تطور منطقة شمال افريقيـا غرب مصر دون مناقشة لأن معالجة هذا الموضوع تحتاج دراسـة خاصة •• وحتى بعد هذا الاستبعاد كانت المهمـة صعبة بالقدر الكافي ولو أن الكتاب تناول هذه المنطقة فان بقيـة افريقيا حيث يبدو بوضوح وقوع تطورات مشابهة لا يمكن اغفالها •

ولذلك فقد حدد المؤلف نطاق دراسته في آسيا متضمنة مصر، وقد أضيفت مصر لأسباب سيوضحها الكتاب نفسه •• ومع ذلك فانه لكي نؤكد استمرار تلك الجبهة من مراكش حتى اليـابان » فسوف نعطي أهم الأحداث في هذا الجزء الذي استبعد من الجبهة

فى سجل نواريخ آسيا (سيلحق هذا السجل فى الجزء السادس من هذا الكتاب) .

أما الصعوبة الثـــانية فكانت نظرية الطـــابع .. ومن ثم كانت أصعب فى حلها .. فقد أراد المؤلف أن يكتب تاريخ القومية الآسيوية الحديثة وليس تاريخ الامبريالية الحديثة ، الا أن هذين الموضوعين لا يمكن فصلهما بعضهما عن بعض من حيث أن الأخير كان السبب الرئيسى فى الأول .. وذلك يعنى أن الاستعمار يجب أن يكتب عنه كما رأته شعوب المستعمرات وما زالت تراه ، والا فمن الصعب فهم رد الفعل القومى .. وهذا لا يسلتزم أن المؤلف لا يعتقد بصحة آراء أهل المستعمرات .. وهو يتفق مع الســـير ستافورد كريبس فيما قاله .. « يكفى أن تقرأ صـــفحات تاريخ الاستعمار البريطانى كى يجلل رأسك بالعار الشديد » .. ويضيف اليه أيضا .. ان التاريخ الاستعمارى للدول الاخرى يؤدى أيضـــا الى حكم مماثل ، وان كلمات مؤسسى المسيحية (متى ، ١٩ ، ٢٤) « اسهل على الجمل أن يدخل من ثقب الابرة من أن يدخل الغنى فى ملكوت الله » . لتصلح للدول كما تصلح للافراد .. بيد أن الصورة التى ترسمها هذه الصفحات ليست كاملة .. ورغم انه لا يمكن الدفاع عن الاستعمار فى السيطرة بالقوة والاستغلال ، فان المؤلف لا ينكر أن هناك جـــوانب طفيفـــة تظهر دوافع بعض الحكام وسلوكهم ومواقفهم فى تطور الحكومات لبعض المستعمرات ، كما لا يمكن اغفال الفوائد المباشرة وغير المباشرة التى حصلت عليها ضحايا الاستعمار من الظروف التى أوجدتها عمليـــة الاستعمار .. فقد تحققت من الناحية المادية بعض المكاسب كمقـــاومة المرض وتوسيع نطاق التعليم وبناء الطرق والكبارى ومشـــاريع الرى .. ولا يشك المؤلف أن الأسيويين الذين ما زالوا يناضلون من أجل الاستقلال التام يجب أن ينظروا للاستعمار والامبريالية بصـــورته الوحشية التى كانت له على الدوام ولكنه لا يشك أيضـــا فى أن

مؤرخى آسيا فى المستقبل سيذكرون الجوانب الطفيفة والتقدمية عندما يتحقق التعاون ـ الذى سبق ان تحدثنا عنه ـ على أساس المساواة ..

ولكن التقدم الى هذه النقطة لا بد لتحقيقه من شرط هام لم يتحقق حتى اليوم .. فعلى الغرب أن يدرك أن الموضوعية الصادقة فى الحكم على الظواهر الانسانية تعتمد ـ على حد قول صديقى بوز الفيلسوف الهولندى الشاب الذى توفى فى نضارة الشباب ـ على ادماج المصالح والقيم فى وحدة أعلى منها جميعا .

ان هذه الموضوعية هى وحدها التى ستحررنا من الحدود الخاصة للماضى وتقودنا الى ذلك النظام العالمى الذى تعتبر اقامته مهمة عصرنا الحالى ، أو بعبارة أبسط عندما يحرر الغرب نفسه من أوهام التفوق .. وسيبقى هذا الهدف مجرد رغبة فاضلة ما دمنا عاجزين عن ادراك الحقيقة وهى أنه يجب على الانسان أن ينتصر على نفسه أخلاقيا ليحطم حواجز الجماعة التى ينتمى اليها ، بحكم الطبيعة ، ويحقق اندماجه فى الانسانية بأسرها .

وهذا الشرط ، كما قلنا ، لم يتحقق بعد . فاذاكان ثمة علامات تشير الى أن فكرة المساواة الكاملة على الأرض لكل الأجناس والطبقات تحقق من حيث المبدأ تقدما مستمرا ، فمن الواضح أن تلك الفكرة لم تصل بعد الى الطبقات الحاكمة ، وخصوصا فى الغرب ..

ان هذا الكتاب مؤلف علمى بمعنى ان كل ما قررناه قد أعيد تقريره مرارا على ضوء أفضل المعلومات الممكنة ، وان المؤلف كرس ما يزيد عن ثلاثين عاما لعمله هذا ، وانه فيما بين ١٩٥١ـ١٩٥٢ نتيجة لوجوده فى اندونيسيا كأستاذ زائر انتهز هذه الفرصة رغم قصر المدة ليضع آراءه موضع الاختبار العملى المباشر .. ولكنه كأى دراسة تاريخية ليس الا بناء أقامه عقل بشرى وفيه تدخل الارادة والأحاسيس الانسانية فتعطى العمل صورة التقييم الشخصى ..

لأن الاساس النهائى لمثل هذا البحث كما قال جورج جللينيك ذات مرة .. ليست المعلومات اليقينية بل الايمان الذى يكمن وراءهـــا ولذلك يعترف المؤلف ـ دون خوف من أن يسىء فهمه بعض القراء غير المتحيزين ـ بأنه عندما كتب كان تفكيره يتجه الى مستقبل أفضل للبشرية وانه قصد أن يساهم بجهده فى تحقيق عالم أفضل.

اسيا عبر القرون

ماذا كانت الملامح الأساسية لآسيا ، هذا الجزء من العالم الذى اقتحمه الأوربيون حوالى عام ١٥٠٠ ميلادية ، واقاموا فيه ابتداء من ١٨٠٠ فصاعدا مناطق استعمارية ، معتقدين أن سيطرتهم عليها ستدوم ، الا انها اخذت تتهاوى بعد قرن واحد ، واختفى اغلبها فى منتصف هذا القرن فلم يبق منها سوى عدد قليل .

ومنذ حوالى ستين قرنا نشأت حضارات الأنهار فى جنوب آسيا وشرقيها فى أودية انهار الفرات ودجلة ، والاندوس والجانج وهوانج هو واليانجتسى . وانتشرت هذه الحضارات عبو العصور من أودية تلك الأنهار التى ولدت على ضفافها ، وحمل المهاجرون معهم طريقة الزراعة التى تتطلب درجة عالية نسبيا من التطور ، اذ تعتمد الزراعة على الرى الذى يتطلب بدوره اقامة اجهزة مركزية لتنظيمه .

ويذكر تاريخ هؤلاء المهاجرين وقوعهم مرات عديدة ضحية لغزوات الرحل من الصحراوات الشمالية ، وكان هؤلاء الغزاة الرحل يعتبرون انفسهم سادة البلاد التى يجتاحونها ، ولم يكن الغزو يعنى بأى حال اختفاء الثقافات التى وجدها الغزاة ، بل كان يستفاد غالبا بهذه الثقافات ؛ كما كان البناء الاجتماعى الذى يقوم عقب الغزو يتيح للغزاة رفع مستواهم .

وهناك نشأت طائفة تعيش على عمل الفلاحين وتتفرغ فى المحل الاول لأعمال الدفاع ، ولكنها كانت تتفرغ كذلك لمهام

ثقافية ، فقد حكم المحاربون والكهنة الفلاحين اذ كانوا يبسطون عليهم حمايتهم ويلبون مطالبهم . ومن الصعب تحديد أى العملين كان اكثر أهمية .

ومن الواضح انه كانت هناك حياة روحية قوية فى أكثر من مكان فى جنوب شرقى آسيا ابان العصور السحيقة ، وبالنسبة للشرق الأوسط والهند والصين لدينا الدليل فى الكتب المقدسة. وحتى بدونها يمكننا استنتاج وجود ذلك النوع من الحياة من الحقيقة البسيطة وهى نشأة كل الديانات العظمى فى آسيا .

وقد استغرق ذلك قرونا عديدة تعتبر زمنا قصيرا نسبيا فى تاريخ الانسان .

وفى الهند كانت الهندوكية أو البراهمانية ظاهرة محلية فى الأصل ، ولكنها عندما انتشرت الىمشارف الهند والهند الصينية صار من حقها أن تدعى دينا عالميا ، ورغم تعدد وجوهها الا أن أكثرها شيوعا هى التعاليم التى تتطلب سلوكا اخلاقيا رفيعا تبعا لنظرية تناسخ الأرواح وبعثها من جديد فى صورة افضل ، بشرط التزام المؤمن بهذا السلوك الأخلاقى .

وأهم من هذه ديانة أخرى لم تقتصر على الهند بل وجدت أكثر اتباعها فى الصين ، هى الديانة البوذية ، وهى العقيدة الدينية التى دعا اليها بوذا فى القرن الخامس قبل الميلاد ، كرد فعل مضاد ، لجمود البراهماتية . ويقدر عدد أتباع الطوائف البوذية المختلفة اليوم بمائتى مليون .

والى جانب البوذية ، توجد الديانة ((الشنتوية)) فى اليابان وهى تربط بين الفروض الدينية والالتزامات الخلقية ، وتنصب على السلوك الاجتماعي وخصوصا سلوك المواطن نحو الامبراطور والوطن .

ويعتبر القرن الخامس أكثر المراحل حيوية بالنسبة لتاريخ الديانات فى آسيا ، ففى عام ٥٠٠ ق.م بدأ الفيلسوف الصينى كونفوشيوس فى الدعوة الى مذهب لا يقل عدد أتباعه اليوم عن ٣٠٠ مليون ، ويمكن القول بأن دعوته هذه تعتبر مثالا أخلاقيا أكثر منها ديانة بالمعنى الحرفى للكلمة ، وان كانت تعتبر عقيدة اذا قصدنا المعنى الأصلى للكلمة باعتبارها رابطة دينية ، فان العقيد الكونفوشية منذ نشأتها حتى اليوم هى الرابطة التى تربط بين أتباعها لأنهم جميعاً يؤمنون بمفهوم واحد للقيم الانسانية الكبرى .

وفى الوقت نفسه تقريبا ظهر ((زرادشت)) فى فارس ينشر تعاليمه التى تقول ان التاريخ كان دائما حربا سجالا بين الخير والشر ينتصر فيها الخير فى النهاية ، وان كانت هذه التعاليم لم تصبح عقيدة عالمية اذ يبلغ اتباعها اليوم ما لا يزيد عن ١٠٠ الف نسمة ، وهم البارسيين فى الهند الذين يعتبرون سلالة أولئك الذين طردوا من فارس عقب الغزو الاسلامى . وثمة ما يدعو الى الاعتقاد بتأثير هذه التعاليم على المسيحية التى يعتبر مفهومها عن الله والشيطان قريب الشبه بمفهوم البارسيين .

وفى الوقت نفسه أيضا كان الأنبياء يدعون لرسالاتهم فى أرض فلسطين ، فمن خلال عقيدة العبريين التى تقول بالتوحيد وتتوقع ظهور المسيح نشأت الديانة التى نعرفها باسم « اليهودية » . وهى تضم اليوم عددا من الأتباع لا يزيد عن ١٢ مليونا .

وتبعتها المسيحية ، التى تعتبر أيضا من أصل أسيوى وهى العقيدة التى تضم أكبر عدد من الأتباع بين العقائد العظمى حوالى ٧٥٠ مليون ، وان كان لابد من القول بأن الخلافات بين الكاثوليكية الرومانية والارثوذكسية والبروتستانتية قد بلغت حدا تبدو معه عسيرة الحل ، كما أن البروتستنتية نفسها تنقسم الى عدة طوائف تختلف أيضا فيما بينها .

أما الاسلام ، وهو آخر الديانات فقد دعا اليها محمد فى الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى وقد اعادت مبدا التوحيد فى أقوى صوره . والمسلمون البالغ عددهم اليوم ٣٥٠ مليون يمثلون العقيدة التالية للكاثوليكية الرومانية من حيث العدد . وبالفتح تارة وبالتجارة تارة أخرى انتشر الاسلام من بلاد العرب حتى المغرب غربا ، ووسط افريقيا جنوبا ، وجنوب الصين والارخبيل الاندونيسى شرقا ، والهند والباكستان وأواسط آسيا شمالا .

ان حديثنا هذا عن العقائد العالمية كان القصد منه اظهار أهمية هذا الجزء من آسيا لتاريخ الانسان ، ولأن هذه العقائد ما زالت تلعب دورا فى يقظة آسيا ، وقيام هذا العدد من العقائد فى هذا الزمن القصير دليل على أن هذا العصر كان من عصور الغليان، لدرجة أن بعض المؤرخين يعتبر القرون القليلة التى سبقت القرن الخامس قبل الميلاد وأعقبته نقطة تحول بارزة فى التاريخ . ورغم عدم معرفتنا الكاملة بأصول هذه العقائد ، فانها دليل على أن التاريخ الاسيوى ليس تاريخا جامدا .

ومن المغالطات التاريخية الشائعة القول بأن تاريخ آسيا قليل الحركة وهى مغالطة يصر عليها أساسا المؤرخون الأوربيون. لانهم ـ ربما بدون علم ـ يجعلون سرعة التغير فى منطقتهم الصغيرة مقياسا للتغيير فى مناطق اكبر كثيرا من منطقتهم .

والمؤكد أن اعتبار آسيا منطقة جامدة فهم خاطىء ، وان كان من المفهوم أن من اسباب بطء التطور فى آسيا اختلاف وسائل الانتاج الاسيوية جذريا عن مثيلاتها فى أوربا . فقد ظلت آسيا قرونا عديدة بنفس الصورة الاقتصادية تزرع بصبر شديد ارزا وقمحا وأذرة ، وتحصل على المحصول نفسه كل عام ، الا اذا قطع هذا النظام الرتيب قحط موسمى تعقبه المجاعات . وعلى هذا الأساس الزراعى المستمر تحدد المجتمع الاسيوى رغم اختلاف فى التفاصيل تبعا للتغيير الجغرافى .

وان آسيا لتبدو حقيقة كالبحر فعندما تشتد الأمواج وتعلو بفعل العواصف فان سطح البحر فقط هو الذى يضطرب أما الأغوار العميقة فلا تتأثر .

وفى آسيا كذلك لم تغير الحركات العنيفة ، والثورات ، والغزوات ، وقيام الممالك وسقوطها ، وتعاقب الأجناس الحاكمة الا الطبقات العليا للمجتمع ، أما الطبقات السفلى فقد ظلت بدون تغيير قرونا عديدة . ولا يمكن الاستمرار فى المقارنة الى أبعد من هذا فان سطح البحر لا يتحرك نتيجة لهدوء أعماقه بينما يشير تاريخ آسيا الى أن تغيير الطبقات العليا ينتج عن عدم استقرار المجتمعات التى تحكمها تلك الطبقات . فان الحاكم الاسيوى لم يكن يستطيع شيئا لرفع مستوى معيشة شعبه ، اذا أراد ، بسبب عجز وسائل الانتاج عن التطور ، ولذلك كان يعمد الى الغزو كلما أراد السيطرة ، فاذا تجاوز الحاكم فى نهب الشعب وسلبه حدود طاقة الفلاحين تندلع الثورة .

واذا نجحت الثورة فاما أن تسقط الأسرة الحاكمة ، وفى هذه الحالة يتولى قائد الثورة الحكم ، أو تصبح تلك الأسرة فى حالة من الضعف يعقبها السقوط فى يد أى مطالب بالحكم من البلاد أو فى يد عدو مغتصب ، وفى الحالة الأخيرة يضم المنتصر المملكة التى سقطت الى امبراطوريته حيث تبقى حتى تحين لحظته وتتفتت امبراطوريته الى أجزاء مرة أخرى .

وكان هذا الأساس الزراعى الثابت ، والذى يختلف كثيرا عن التطور الديناميكى لأوربا منذ نهاية العصور الوسطى ، المصحوب بنمو سنوى فى الصناعة وما يترتب عليه من ارتفاع فى مستوى معيشة الطبقات الدنيا ، هو السبب الرئيسى فى هذا الانقسام الحاد فى آسيا ، والذى ما زال موجودا حتى يومنا هذا - بين الأغنياء والفقراء ، ونتيجة لما يعتبره الأوربيون - حسب مقاييسهم - فشلا كاملا فى الصناعة نظرا لعدم الاهتمام

بالتجارة بالنسبة للزراعة فلم تقم فى أغلب اجزاء آسيا طبقة متوسطة حرة ــ كما حدث فى أوربا ــ لكى تملأ الفجوة بين الطرفين النقيضين .

وكانت هناك طبعا تفرقة واضحة بين الأمير والفلاح ، بين النبيل والحرفى وان كانت الحركة بين الطبقات وما زالت متقدمة. ومقارنة هذا مع الخلاف الرهيب الذى ما زال قائما فى آسيا بين ضخامة القصور والبلاطات ، بما يحوطها من بريق وأبهة بأكواخ الفلاحين والمنازل الوضيعة التى يعيش فيها الحرفيون وصغار التجار ، فان أوربا لم تعرف أبدا حياة السيطرة كما عرفتها آسيا ولهذا السبب عندما يجتمع الدبلوماسيون الاسيويون والغربيون للتفاوض ، فالفشل عادة من نصيب الغربيين ، وهنا يتحدثون عما يسمونه « دهاء الأسيويين » ، الذى لم يكن فى بساطة نتيجة لضعفهم فحسب .

انه ليس من قبيل الصدفة أننا نتحدث فى الغرب عن الأبهة الشرقية ونفكر فى الشرق على أنه مسرح القصص الخيالية .

ولكن حقيقة الامر أن العالم الذى كشفنا عنه النقاب ليس عالما خياليا وانما هو عمليات النهب غير المحدودة التى تواجهها الجماهير المقهورة ، وان يكن ليس من الخطأ تماما أن ننظر الى ثروة الشرق كنوع من حلم لم يتحقق .

ان هذا الثراء حين يقارن بقية الشعب يبدو اكثر مما يتصوره العقل فى امريكا او اوربا .

وليس هذا صحيحا فيما يتعلق بالحكام الكبار فحسب ، سواء كان أحدهم سلطانا فى تركيا أو شاها أو حاكما مغوليا عظيما ، وانما هو صحيح ايضا فيما يتصل برجال الحكم أو الحرب فى فارس أو الصين أو اليابان .

فقد كانوا يعيشون فى قصور تبلغ حدا من الضخامة بحيث

تكاد تكون مدنا صغيرة أقيمت بتكاليف بسيطة نسبيا نظرا لرخص الأيدى العاملة ، فلم يكن العامل يكسب أكثر مما يلزمه ليظل هو وأولاده أحياء ، وفى آسيا كانت هذه اللوازم الضرورية قليلة جدا .. واذا احتاج بناء القصر لمزيد من النفقات كان العمل الاجبارى للفلاحين يتضاعف دون مقابل .. فان استغلال الجماهير أمر لا يعترض عليه أحد .. وكانت النتيجة تراكم كنوز من الذهب والفضة والعاج والأحجار الثمينة ، فى تلك القصور ، كل قطعة تفوق الأخرى ثمنا وروعة تبعا للاحساس الراقى بالجمال الذى احرزه الحرفى الأسيوى .. وطبقا لقانون الاستغلال فكل ما يبدد على المقربين من الرجال والنساء يعود مرة أخرى الى الحاكم ، أو الى ابنه أو خلفائه من بعده .

ويمتلىء الأدب الصينى بالقصص التى تتحدث عن السيطرة المطلقة وحياة الاسراف للحكام الكبار الذين لم يصبحوا كلهم بعد فى عداد الماضى .

وكانت هذه السيطرة مطلقة الى حد أنها كانت تمتد الى ما بعد موت المالك .. ففى الهند كان يحكم على أرامل الكبراء بالموت مع ازواجهم على نيران الجناز المطهرة ، وكان أولئك النسوة يملأهن الاحساس بالواجب تجاه سادتهم الأقوياء بحيث اذا كن لا يذهبن الى هذه المحارق فرحات ، فانهن كن يذهبن اليها بشىء من التقديس ..

ولم تكن فى الصين عادة حرق الأرامل ، وان كان أغلب النساء يعشن تحت حكم القانون والعرف ، فعادة تقييد الأقدام كانت دليلا مباشرا على أن أقصى ما تأمله المرأة الصينية هو أن تكون حيوانا أليفا .. وكذلك ، وان كان لدرجة أقل ، فان نقاب المرأة المسلمة كان تعبيرا عن انكار حقها فى أن تعيش حياتها حرة ..

وكل هذه القوة والثروة لم تكن تبدد ببساطة ، لكى تجمع

مرة أخرى ثم تبدد .. بل كانت غالبا تنفق من أجل ثقافة وتعليم ارفع لقلة من الأفراد بدون شك ، وان كانت هذه القـــلة ذات قيمة كبــرى .. ان جانبا مما ينتجه النــاس ، بعرق جباههم كان يذهب الى الكهنة ويخصص للانفاق عليهم وعلى بناء معابد ضــخمة أقيمت ببذخ متناه من أجل عظمة الآلهة .. كما أن جانبا آخــر تخصصه الكهنة أو عدد من رجال العلم ، للتعليم وتنمية المعرفة ، فأول مرصد بناه امبراطور الصين فى بكين قبل أن يقام مثله فى أوروبا بثلاثمائة عام ، وقبـــل أن يحضر المبشرون الجزويت معهم ما اعتبر فى ذلك الوقت من أحدث الأجهزة فى الغرب بحـــوالى أربعمائة عام .. ان ما قدمه الحكام الصينيون وشـــعراء البلاط الفارسى والـكهنة البـوذيون للفن والأدب لا يمكن حصره فى كلمات قليلة ، وان كان يمكن تلخيصه فى كلمة واحدة ، كل شىء ..

ولم يكن للشعب أى نصــيب فى كل هذه القــوة والثروة والثقافة ، فيما عدا طبعا ، ان قوة الحاكم وثروة الطبقة العليـــا وفراغها الذى أتاح الفرصة للعالم والفنـــان قامت على كد هـــذا الشعب وعرقه .. والفقر الأسيوى مثله كمثل الفخفخة الشرقية . فالعامل أو الفلاح كان يكافأ على كفاحه وعرقه المرهق بأن يترك ليواجه شقاء الحياة مع الحاجة الى الضروريات الأساسية ، ونسبة وفيات للاطفال تبلغ حوالى ٨٨ ٪ بل والحاجة الى بيع البنات .. وفى الصين كانت تلك الفتيات يصبحن جوارى للمـــالك ، وفى اليابان يصبحن فتيات الجيشا ..

وكان الرجل من عامة الشعب يبيع نفسه عادة ، وفى سنغافورة أصبح عامل ريكشا - اى عبدا طول حيـــاته لرجل آخر ثم ينتهى فى كهف من كهوف الأفيـــون ، وفى كل مكان من آســـيا كانت الجماهير تقاسى من المرض والجوع والموت ، واذا ساعد الحظ أحد أفراد الشعب وأصبح مالكا لقطعة من الأرض يستمتع بمحصولها ويعيش فى منزل صغير تحيط به حديقة خضر بهـــا عنزة ، أو

بقرة كان محتما أن تقضي عليها جميعا كارثة كل عامين على الأكثر، فاما محصول ضعيف ، أو مراب يطالب بدينه المستحق على محصول مقبل ، أو جماعة من الجنود تحطم كل شيء حيث تمضى سلبا ونهبا فى البلاد ..

وليست مصادفة أن تكون مهنة الجندى فى الصين مهنــــة مكروهة .. واذ فقد الشعب كل شيء كان عليه أن يدفع فقره ، ثمنا للحياة الناعمة والكبرياء التى يتمتع بها الأغنيـــاء .. وفى بعض الأحيان،كما فى الهند مثلا ــ كان بؤسسه يتضاعف باستبعاده من المجتمع كلية ، باعتباره منبوذا .

ولم تغير الثورة الاجتماعية ولا التطورات الفنية والعلمية من أحواله ، فظلت الوسائل الزراعية لقرون عديدة كما كانت عنــدما قامت الحضارات الأولى . ففى الجبال والصحارى كانت المياه أغلى الأشيا . ولم يكن يقدر على توفيرها سوى الأغنيـــاء لانهم ملكوا الآبار ومن ثم القوة .. وفى الوديان كانت المياه هى التى تخصب الأرض ، وكانت هناك أيضا الأخطار الدائمة للفيضانات والآلات والمضخات والمحاريث وادوات صيد الأسماك والطيور والحيوانات وبقيت المراكب الصغيرة كما كانت عندما صنعهــــا الرواد الأول بابتكاراتهم المدهشة ، واستخدموا المهارة عوضا عن الآلة . وظلت المساكن فى حالة يرثى لها كالخيام فى المناطق الزراعية والكهوف فى التلال الافغانية ..

ولم يعمل الناس على تحسين أحوالهم كما فعل بعــــد ذلك الفلاحون والعمال فى أوروبا .. فجعلوا هدفهم الرئيسى العمل على تحسين احوالهم .. ألم يكن آباؤهم وأجدادهم عـــلى قدر ما تعى الذاكرة يعيشون حياة مماثلة لحياتهم اليوم ، والا يســـتحقون التعويض عن ذلك ؟ هكذا فكر الأسيويون .

وظلت الجماهير الاسيوية جيلا بعد جيل ، وقرنا بعــد قرن

تعيش فى عام ٢٥٠٠ بعد الميلاد كما كانت تعيش عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد غير طامحة الى شىء وغير راغبة فى أى شىء ، ومن ثم لم تبذل أى جهد لتحقيق حياة تليق بالآدميين ■

غزو من الغرب

كان تحديد عام ١٥٠٠ ميلادية الذى ورد فى الفصل السابق مقصودا ، ففى هذا التاريخ كانت الشعوب فى أوروبا تعيش تحت ظروف لا تختلف كثيرا عن ظروف الشعوب الاسيوية ، وان كان التغيير الأساسى بدأ فى هذا التاريخ يستكمل عناصره . وقد أدى بدوره الى تغيير مماثل فى حياة معظم الشعوب الأوروبية .. وكان هذا التغيير قد بدأ فى أثينا عند نقطة التحول التاريخية التى تحدثنا عنها من قبل عام ٥٠٠ قبل الميلاد ، فبعد ألفين من السنين تخطت أوروبا حدودها وبدأ التوسع الذى حمل معه البحارة الاوروبيون الى أمريكا غربا وآسيا شرقا ، وكان هدفهم فى اول الأمر التجارة ، ثم حماية هذه التجارة وأخيرا السيطرة والحكم كلما أمكن ذلك ..

وقد بالغ العلماء الأوروبيون كثيرا عندما تحدثوا عن السيطرة الغربية على آسيا فيما بين ١٥٠٠ ، ١٨٠٠ ميلادية على سبيل الفخر بما حققه آباؤهم وأجدادهم فى ذلك الوقت .. لأن التجارة الاسيوية كانت قادرة على الدفاع عن نفسها ضد التهديد الغربى لعدة قرون بعد ١٥٠٠ م. ولم تكن السيطرة على آسيا قد تمت بأى حال ، اذ حاول المعتدون الغربيون أن يتأقلموا تبعا لظروف الشرق ولم يحدث العكس .. فان الحقيقة الثابتة هى أن البرتغاليين والاسبان والانجليز والفرنسيين والهولنديين هم الذين ذهبوا الى الشرق بينما لم يحاول الصينيون أو الهنود النزول فى وأروبا .. كما لم يحدث حتى فى التاريخ القديم أن نزل اليابانيون أو الملاويون فى أمريكا .

وظل الكثيرون ، خصوصا فى الغرب ، لمدة طويلة يبررون غزو الشعوب البيضاء للشعوب الملونة بعجز هذه الاجناس الملونة ، أو بسبب تفوق الأجناس البيضاء - أي الاوروبية - وهى نظرة غير خاطئة تماما ، لأنه لو لم يكن لدى الأوروبيين الى حد ما وسائل التفوق الاقتصادى والعسكرى لما كان هذا الغزو ممكنا .. على أن هذه النظرة أيضا لا تخلو من خطأ لأنها تقبل ما لم يثبت قطعا كأمر مسلم به ، فهى تعتبر أولا أن هذا التفوق نتيجة لشخصية الأوربى وليس نتيجة لأسباب أخرى ، كما تعتبر أن هذه الشخصية موجودة دائما وستظل كذلك دائما ، ولكن اذا نظرنا للامر نظرة موضوعية نجد أنه لم يبق شيء من التفوق الغريزى للشعوب الأوروبية البيضاء كما أن السيطرة الاوروبية ، تاريخيا ، لم تستمر الا وقتا قصيرا هو الثلاثة قرون الماضية تقريبا .. الا أن الاتجاه باستمرار الى خلط الماضى بالحاضر - عند مواجهة التاريخ - قد أخفى العجز النسبى المتوسع الاوروبى وأقنع الاوروبيين بأن سيطرتهم كانت نتيجة حتمية للتفوق الاوروبى ، ومن ثم ستظل تلك السيطرة دائمة .. وهكذا رفض هذا الفهم الغير حقيقى لعدم تغيير خصال الجنس الابيض وطبيعة الشعوب الاوروبية .

وقد أنصف التاريخ الاسيويين وبعض الاوروبيين الذين يرون تفاهة المسألة العنصرية ويركزون اهتمامهم على الظروف الاجتماعية والاقتصادية . فالاوروبيون فى العصور الوسطى بين ٤٠٠ - ١٤٠٠ م كانوا أبعد ما يكونون عن السيطرة على أجناس وشعوب أخرى ، بل الأقرب الى الصواب القول بأن الاوروبيين كانوا فى حالة دفاع عن أنفسهم ، فى تلك الفترة ، ضد العرب والمغول .. ولم تملك أوروبا السلاح الذى نقلها من حالة الدفاع الى الهجوم الا عندما بلغت المرحلة الاولى للرأسمالية وما تبعها من خلق دول قومية فى نهاية القرون الوسطى ، وكان هذا السلاح كافيا لكى يمنحها القوة للسيطرة على الارض .. ولم تكن أهم الخصائص

الاوروبية ، فى غرب أوروبا بصفة خاصة ، هى مجرد وجود وسائل الانتاج الرأسمالية بل كان فى انتصارها الكامل ، بينما لم تكن هذه التطورات قد بدأت فى أى مكان آخر خارج أوروبا •

وهذه المشكلة التاريخية ذات الأهمية العظمى ، رغم كل الجهود التى بذلت فى دراستها ما زالت حتى اليوم دون حل •

والتاريخ لا ينتظر الوصل الى حل المشاكل النظرية ، فقد أوضح هذا القرن أن النظام الرأسمالى والحكم الغربى ليسا دائمين فاذا كان حقا ان لب المشكلة الاسيوية من القاهرة الى كامشاتكا لا يرجع الى اختلاف الأجناس بقدر ما يرجع الى اختلاف وسائل الانتاج وما يترتب عليها من اختلاف فى مستوى المعيشة ، فعلينا أن نركز بحثنا على طبيعة النزاع اللاحق ونتائجه •

فعندما بلغ التطور الاوروبى أقصى مداه حوالى عام ١٨٠٠ م أثناء الثورة الصناعية والثورة الفرنسية ونتائجها فى اطلاق طاقات غير مجهولة أصبح تأثير الغرب حاسما فى مستقبل آسيا . ولم يكن أمام آسيا فى القرن التاسع عشر الا المقاومة أو الامتثال ولم يكن مستطاعا سوى الحل الأخير . وجاء بعد ذلك الصناعات القطنية من لانكشير لتمزق مجتمع القرية الاسيوية ثم جاءت حرب الأفيون ضد الصين واقتحام اليابان بالقوة .. وأعقب بناء قناة السويس التى اختصرت الطريق الى آسيا وتلا ذلك السفن البخارية وبناء السكك الحديدية بواسطة رأس المال والخبرة الغربية •

واشتد ساعد النفوذ الغربى بعد بداية الاستعمار ، فتبعا لنمو الطاقات الانتاجية فى أوروبا من خلال الصناعة نموا ضخما ثارت مشكلة حاجة الدول الغربية الى خامات وأسواق لمنتجاتها • وبسبب النمو المستمر للصناعة وامتداد التجارة حدث تراكم رأس المال وأصبحت هناك مشكلة استثمار رأس المال •• وتدفقت رؤوس الأموال الاوروبية الى أى مكان يتيح فرصا أكبر للربح ••

وطبعا لم ينجه الى الدول الغربية التى تكتظ براس المال ، ولكن الى كافة البلاد غير النامية حيثما كانت ، وغزا رأس المال المناطق الاستعمارية ، وهكذا بدأ فى هذه المناطق يحل محل وسائل الانتاج التى كانت قبل الرأسمالية •

ونستعمل لفظ (البـــلاد الغير نامية) للتبسيط ، وان كان لا يوجد هذا التغيير• فالحقيقة انكل أرض نزل اليها المستعمرون الغربيون كان فيها أهلها الذين يعيشون بوسائلهم الخاصة •• كما أن توسع الرأسمالية لم يتم حسب خطة عالمية موضوعة لاستصلاح الأراضى غير المزروعة مثلا واستخدامها لمصلحة الانسانية، بل اتجه ببساطة ليبحث عن الأسواق لمنتجاته الزائدة وتوفير المواد الخام والحصول على الأيدى العاملة الرخيصة ، فلم تكن غابات البرازيل البدائية وصحراوات آسيا أو سهول آسيا ذات فائدة بالنسـبة لتحقيق أى من أهداف الرأسمال الثلاثة ، فقد توجـــه الاستعمار حيث يمكن تحقيق الأرباح ووجد ضالته فى جنوب وشرق آسيا • وفى كل المناطق التى خضعت للاستغلال الاستعمارى أو شـــبه الاستعمارى نشأ ما يسمى (بالاقتصاد المزدوج) •• وبعد السكك الحديدية أقيمت الخطوط الجوية التى فتحت تلك المنـــاطق امام المواصلات الحديثة التى مهدت بدورها لانشاء المدن الحديثـــة ذات المجارى والمياه الجارية •• وفى الضواحى أقيمت المصانعوالسدود والموانى الحديثة والمناجم وآبار النفط وببساطة كل ما تستطيع الخبرة الغربية أن تقيمه وتبنيه •

ومن قصر النظر القول بأن لم يكن هناك سوى جمع الأرباح ، فقــد اســـتغرقت أوروبا ثلاثمائة عــام ـ دون تبــــديد ـ لكى تلائم بين ثقافتها الوطنية والتصنيع بينما لم تعط آسيا سوى جزء على عشرة من هذا الوقت ، لذلك لم يكن غريبا أن آسيا قد هز نظامها الاجتماعى وحضارتها ـ التى تعود الى قرون عديدة ـ من أساسها ، وان الملاءمة الجديدة الحتمية كانت تعني عمليـــة اقتلاع من الجذور وإنفجارات عنيفة •

وكان الاقتصاد الجديد حيثما اعتـــدت الرأسمالية وهاجمت وقوضت آسيا التقليدية ، ما قبل الرأسمالية ، التى يعيش فيهـــا الفلاحون والعمال هى الأساس لثورة كبـرى لم يعـرف مثلها فى التاريخ • وعبرت هذه الثورة عن نفسها بمقاومة أولئك الاجانب ـ أى ضد أوروبا ـ ووجدت تبريرا فى الاسلوب المخزى الذى عاملت به الرأسمالية الشعوب الاسيوية ، هذا الى أنه بالاضافة الى الاستقلال الاقتصادى مارست الرأسمالية قهر القوميـــة وتحقير الفـــرد ••

فهل كانت الامبريالية شرا فحسب ؟

ان العلاقات الانســـانية ليست بمثل هذه البســـاطة ، فالامبرياليـــــة كانت شرا مثل الرأسماليـــة •• كمـــا أن لها أيضا مثل الاستعمار جوانبها الحسنة •

ولما كان على الانسان أن يعيش على ماتنتجـــه الأرض ، فان تضاعف عدد السكان يضاعف الحاجة الى زيادة استغلال موارد الأرض • وان شدة الحاجة الى مضاعفة اســـتغلال موارد الأرض والثروات التى تراكمت فى باطنها عبر ملايين السنين يطلق عليـــه تنمية الانتاج • ومن الواضح الآن أنه لم يحدث فى التاريخ أى نوع من الانتاج كان له مثل هذا التأثير على الاســـتغلال مثـــل الرأسمالية ووجهها الامبريالى لايعنى أكثر من زيادة الانتاج فى العالم • وقد جرت الامبريالية ، دون نية طيبة ملايين لاعدد لها من غير الاوربيين للاشتراك فى عملية الانتاج الحديثة التى فتحت الأبواب أمام كل الامكانيات رغم ماأحدثته من آلام مادية مؤقتة •

واذا لم يزيف التاريخ فيجب الاعتراف بأن الاستعمار الاوربى والأمريكى وكذلك الامبريالية لم يكن لها من هدف سوى الربح ، ولكن يجب الاعتراف أيضا بأن كل الجهود التى بذلت من أجـل الربح قد ادت الى انقراض او على الأقل مكافحة أسوأ الشرور التى

عانت منها آسيا . كما يجب أيضا الا نجادل فى أن مكان هـــذه الشرور قامت شرور اخـــرى كانت فى أغلب الأحيـــان غيـــر متوقعـــة وغير مقصـــودة . ولقد وصف الغزو الراسمالى فى كثير من الأحيان بأنه التطريز الذهبى لاطراف عباءة الشحاذة التى ترتديها آسيا ، وكان هذا الوصف صادقا لأن الأطراف عادة من الذهب . ولم يكن هناك بد من تعليم الناس على الطريقة الحديثة حتى يمكن اقامة نظام اجتماعى حديث وهذا يعنى اقامة مدارس وجامعات كما كان لابد أن يتعلم العمال فى المصانع الحديثة القراءة والكتابة وأن يكونوا على استعداد لفهم بعض الامور المتعلقـــة بالآلات التى يعملون عليها . وهذا يتطلب تعليما فنيا بالاضافة الى التعليم العادى . وكان لابد لزيادة انتاج حقول الطبـــاق وقصب السكر والبن والشاى أن يدرك العمـــال بعض المعـــلومات عن منتجاتهم وهذا يعنى بدوره تدريبا زراعيا . واذا لم تكن هنـــاك رغبة فى أن يظل العـــامل عاجـــزا عن العمل نصف الوقت بسبب المرض فلابد من تحسين الأحوال الصحية أيضا ، أى ضرورة وجود مورد مناسب للمياه ، وتعليم الشعب مبادىء الصحة واقامة مراكز للاعلام ومستشفيات ، وقد حدث هذا كله فعـــلا وان كان ببطء شديد ، وعلى نطاق ضيق وبتردد كبير ، ولكنه حدث .

وعلى أى حال توجد حالة واحدة تشذ عن نطاق هذه الموازنة بين الخير والشر ، فان عملية التمدين التى تمت فى آسيا أوجدت مجموعة من الأوربيين الذين اتخذوا بحكم أعمالهم موقفا مختلفا ازاء اخوانهم من الآسيويين وعملوا على ايقاظهم . ولا شك أن هذه اليقظة كانت ستتم حتى بدون هذه المساعدة الا أنها كانت ستتم متأخرة وأكثر بطأ عما حدث . وهذه اليقظة تعبر عنها كلمـــة القومية . فان القومية الآسيوية التى أيقظتها الامبريالية الأوربية قد حركت الملايين من سباتهم لقرون طويلة ومن ثم أنذرت العالم بمرحلة جديدة من التطـــور . وقد اكتسحت امبـــريالية الدول

الصناعية الغربية أمامها البلاد الاستوائية كالفيضـــان فحطمت حضارات كبرى فى طريقهـا ، ودفعت شـعوب عديدة الى مواقع الاستغلال ، ولكن من الطين الذى خلفته الأمواج العالية وراءها شبت القومية التى انبثقت عنها حضارة جديدة ومجتمع جـديد حالما انحسر الفيضان • وانا لنتطلع الى آسيا المتحررة التى تستطيع أن تفعل مالم يستطعه الغرب ، وذلك بأن تحصل على مزايا فنون الانتاج الحديث دون التورط في مشاكله •

الدين والقومية

تعرضت أكثر من مرة ، فى الفصول السابقة ، للحديث عن القوميه ،ولكننا لم نقل بعد ما معنى القومية • ونحن لانستطيع أن نقدم تعريفا للقومية ، كما لايستطيع التـاريخ ولا العـلوم الاجتماعية المخصصة لذلك ورغم سهولة التعريفات البسيطة الا أنها لاتفيدنا هنا ، لان الظواهر الانسانية والتاريخية كذلك تكون دائما أكثر تعقيدا مما تسمح به كلماتنا المحدودة • وحتى اذا توصلنا الى تعريف مناسب فسيكون هذا التعريف معقدا للدرجة التى لاتسمح لغير القارىء الذى يدرك جيدا تلك الظاهرة أن يفهم مانريد قوله • وبمعنى آخر أن المفاهيم التاريخية لا يمكن فهمها الا اذا اقتربنـا كثيرا من الظواهر التى تقوم عليها هذه المفاهيم ، ويمكننا بالطريقة نفسها معرفة الانسان وفهمه .

ونظرا للدور الهام الذى قامت به كل من القومية والدين فى يقظة آسيا فعلينا أن نتحدث عن العلاقة بينها • فالقومية ليسـت مجرد محرك لشعب من الشعوب ، أو جماعة بين هذا الشعب للعمل على تحقيق الاستقلال السياسى ، كما أنها أكثر من رغبة لتحقيق الاستقلال الاقتصادى عن الأجانب ، وأكثر من الولاء نحـو الدولة الوطنية نفسها رغم أنه يشملها • كما أنها أيضا ليست مفهوما دائما ومستمرا • ونحن نعرف قومية غربية وأخرى شرقية ، قوميـــة فى القرن السادس عشر وأخرى فى القرن التاسع عشر وثالثة فى القرن العشرين • ورغم أنها تختلف عن بعضها الا أنها متشابهـة لذلك نطلق عليها اسما واحدا .

فالقومية اذن ، ظاهرة تاريخية لم تكن موجودة فى وقت من

الأوقات • كان ظهورها لأول مرة فى أوربا ، وفى ألمانيا بالذات فى سنوات حرب الثلاثين المشئومة (١٦١٨-١٦٤٨) التى كانت أيضا حربا دينية • فقد كان الدين أكثر العوامل أهمية بالنسبة للدولة والمجتمع فى ذلك الوقت • وبعد عام ١٦٥٠ تقريبا • وعقب الثورة الفرنسية ١٧٨٩ بالذات حلت القومية الى حد ما محل العقيدة الدينية وهذا لايعنى بأى حال اختفاء الدين ، ولكنه لم يعد الأساس الروحى الوحيد للنظام الاجتماعى • اذ قامت دول قومية جـديدة يعتنق سكانها عقائد دينية مختلفة مثل ألمانيا وانجلترا وهولندا وسويسرا والولايات المتحدة الأمريكية • وكان حلول القومية كمبدأ سائد محل الدين نتيجة تمكن القومية ولو جزئيا من سد العديد من الحاجات الانشائية فى بعض المجتمعات بدلا من الدين ، أو بعبارة أخرى ، ان فى القومية عنصرا دينيا أو أن القومية هى عقيدة • وحتى اليوم مازال حلول القومية الى حد ما محل الدين يعتبر مفهوما أوربيا ، نظر اليه فى آسيا حوالى ١٩٠٠ كأحد المستوردات الأوربية • وهو غير محقق على الاطلاق ، ومن الممكن القول بأن الاتجاهات القوميـة تنمو فى كل دولة فى أثناء مرحلة معينة من تطورها واذا كان هـذا ينطبق على أوربا منذ عام ١٦٠٠ ، فان القومية فى آسيا قامت منذ عام ١٩٠٠ من تلقاء نفسها ، عندما قطعت الطبقات الحاكمة ، بل وعامة الشعب ، شوطا بعيدا فى التطور ، مما أدى الى اشتغالهـا بالاهتمامات الخاصة بالدولة والمجتمع •

وبعد هذا الحديث النظرى نعود الى الحقائق التاريخية ونضع أمام الأنظار بعض الحالات التى ارتبطت فيها القومية بالدين - حالا أوربية ، واسلامية ، وهندية وبورمية ويابانية • فالكنيسة المسيحية الأصلية انشقت الى قسمين الأول عام ١٠٥٤ وترتب على ذلك انشاء الكنيسة الشرقية فى جنوب أوربا وروسيا • والثانى الاتجـاه الاصلاحى الذى ظهر فى منتصف القرن السادس عشر ونتج عنـه

انقسام بين شمال أوربا الذى أصبح بروتستنتينيا ، وجنوب أوربا الذى بقى كاثوليكيا رومانيا ٠

ويجدر بنا أن نلحظ الحقيقة البارزةالتى صاحبت هذا الانقسام الثانى ، اذ وقع هذا الانقسام تقريبا فى الوقت الذى بدأنا نستشعر فيه نمو القومية فى أوربا ٠ وكان الاصـــلاح ينصـــب على ازالة النقائص والخرافات من الكنيسة القديمة ٠ هذا بينما كانت القومية عاملا لايقل أهمية فى ألمانيا وبريطانيا وهولندا وسويسرا بصـفة خاصة ٠ فقبل الاصلاح تدفقت أموال كثيرة من المؤمنين فى تلك البلاد الى البلاط البابوى مما ضايق الوطنيين ٠ اذ كانوا يريدون الاحتفاظ بتلك الأموال فى بلادهم بل ويرغبون أيضا فى السيطرة بأنفسهم على الكنيسة والشئون الدينية ٠ ولنذكر أن هذا كان فى بداية مرحلة الرأسمالية التجارية أى فى الوقت الذى كان فيه رأس المال الوطنى قادرا على ممارسة سيطرته المباشرة على الانتاج ٠

كما أن الحركة الاصلاحية الكبرى فى الاسلام بدأت فى وسط بلاد العرب ، مهد الاسلام ، فى القرن التاسع عشر ٠ حيث أسس محمد بن عبد الوهاب طائفة نادت بتنقية الاسلام من الشوائب التى تسللت اليه باتباع أسلوب مبسط للحياة والالتزام بواجبات الدين وفى الوقت نفسه عمل الوهابيون على محاربة النفوذ الأوربى الذى اعتبروه مسئولا عن هذه الشوائب التىيريدون القضاء عليها ٠ وهذا القول يعد مبالغة كبيرة . فاذا كان الأوربيون سببوا الكثير منهذه الرذائل فانهم ليسوا بأى حال سبب كل الشرور فى العالم ٠

فكل الهيئات سواء الدنيوية أو الدينية ، طالما يديرها آدميون ، تتعرض للفساد ٠ وكذلك كل العقائد تستدعى جهودا اصلاحية من وقت لآخر . وقد حاول السلطان فى القسطنطينية ، وكان يعتبر الزعيم الدينوى والروحى للاسلام ، أن يخمد الحركة الوهابية ولكن دون جدوى ٠ وفى أوائل القرن التاسع عشر جرد الحاكم التركى

لمصر « محمد علي » حملة منظمة ضد الوهابيين استطاعت امتلاك مكة والمدينة (١٨٠٣-١٨٠٦) وهددت دمشق وسوريا • وكان الوطني الكبير ابن سعود الذى تنسب اليه العربية السعودية ينتمي للمذهب الوهابى •

وفي شمال أفريقيا عام (١٨٨٧) قام مذهب مشابه للمذهب الوهابى ، سمي بالسنوسية نسبة الى مؤسسه محمد على السنوسى •• وانتشر أتباعه فى شمال أفريقيا كله وكانوا يعارضون كلا من السيادة المطلقة للسلطان والعدوان الأوربى • وفى (١٩٠١- ١٩٠٢) حاربوا ضد الفرنسيين ، وعام ١٩١٤ شبت ثورة شعبية ضد الايطاليين الذين استولوا على ليبيا من الأتراك (١٩١١- ١٩١٢) ولم يكن مصادفة عندما أراد موسولينى بناء امبراطورية أفريقية أن تصدى له السنوسيون فقد اجتاح موسولينى بلادهم ومركز قيادتهم كوفرا القريبة من الحدود المصرية ، وتعرضوا للأساليب الاستعمارية الفظيعة . ولا تعنى هزيمة السنوسيين هزيمة أفكارهم فان الأفكار لا يقضى عليها بالحراب . واذا كان الاسلام قد عاد اليوم مرة اخرى عاملا ملهما ومحركا من المغرب الى غينيا الجديدة ، بصرف النظر عن الرأى فى سياسة بعض الجماعات الاسلامية ، فان هذا يعود بدرجة كبيرة الى مابدأه الوهابيون والسنوسيون •

وبالاضافة الى هذا الدفاع السلبى ضد الغرب وضد كل ما يسمى بالحديث ، فقد كان فى الاسلام وما زال هناك ، اتجاه للوقوف ضد الغرب بالاستيعاب الجزئى للأساليب الحديثة ، وهذا هو الدفاع الايجابى •

وهذه الحركة هي التى وجدت تأييدا كبيرا فى مصر والهند من خلال تعاليم جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨-١٨٧٩) ففى مصر كان محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) وشيخ الاسلام منذ (١٨٩٩) يحاول

تقديم تفسير حديث لتعاليم القرآن ايمانا منه بعدم وجود تناقض بين الاسلام وعلوم الغرب الحديثة وفى الهند كان سعيد أحمدخان (١٨١٧ـ١٨٩٨) مؤسس الجامعة الاسلامية فى « اليجرا » يعتقد أن الاسلام بحكم طبيعته لايمكن أن يتعارض مع قوانين العلم ومن ثم فتح الطريق أمام أفكار الغرب • كما حاول المسلم الهندى سعيد آمير على فى كتابه (روح الاسلام ١٨٩١) أن يقدم تفسيرا جديدا للقرآن يؤيد آرائه الحديثة فى الرق وتعدد الأزواج والطلاق فأعاد التذكير بالحقيقة التاريخية التى تؤكد أن بداية العلم الحديث فى أوربا كانت من عمل العلماء العرب • وقد استشهد محمد اقبال (١٨٧٣ـ١٩٣٨) باعث فكرة الباكستان ـ ببيرجسون ونيتشة فى دراسته الجديدة عن الاسلام • كما فعل التركى ضياء جوك ألب ، فى بحثه عن الهيئات العقائدية فى الاسلام عندما استشهد بكونت ودوركايم ومازال ضياء حتى اليوم الأب الروحى المبجل للقومية التركية •

ومما يجدر ملاحظته أن هذه الاتجاهات الحديثة فى الاسلام يدعمها فى التطبيق الايمان بأن هذه الاصلاحات التى يستهدفها كل من هؤلاء المصلحين منصوص عليها فى القرآن اذا فهم فهما صحيحا فاذا كان ذلك يعنى اتجاها نحو الاهتمامات الدنيوية فانه من ناحية أخرى يعنى التمسك المستمر بالمعتقدات القديمة ، وهذا الأثر المزدوج يمثل أكبر القوى الدافعة للحركة السياسية وهى القوى الدينية فى العالم الاسلامى •

والحالة الثالثة هى نهضة البوذية ، التى ترتبط أيضا ارتباطا وثيقا بالجهود القومية الحديثة •وأول من يذكر فى هذا الصدد « سوامى فيوكاناندا » (توفى ١٩٠٢) الذى التحمت فى تعاليمه آثار الشرق والغرب . وكأغلب الشبان الذين تعلموا بالأسلوب الغربى فقد وقع تحت تأثير « سرى راماكريشنا » وهو أحد المتمسكين بالتقاليد الهندوكية القديمة • وفى التسعينيات أمضى

ثلاث سنوات فى أمريكا وأوربا ومن ثم توصل الى نظرية بلغت عنده مبلغ الايمان بضرورة حصول الشرق على المنجزات المادية للغرب • بينما يجب على الغرب أن يتلقى الهندوكية من الشرق . وكانت وجهة نظره أن لهندوكية هى العقيدة التى اعترفت بكل الحقائق فى العقائد الأخرى • وتعتبر الخطب التى القاها فى مؤتمر الأديان فى شيكاغو أول محاولة وفاقية وان كانت تقصد تحد النشاط الذى تقوم به بعثات التبشير الغربية • وقد اتخذ « تيلاك » رائد القومية الهندية وجهة النظر نفسها وكان يرى فيها سبيل الانقاذ للهند •

والحالة الرابعة هى احياء البوذية فى بورما • فقد حرمت من وضعها الرسمى أيام الاحتلال البريطانى وتجمدت • ولكن عندما أخذت الحركة القومية تنتشر فى جموع الشعب بدأت عملية الاحياء وكان البونجى ، أى الكاهن البوذى ، هو الذى حمل للقــرى منــذ القدم عناصر المعرفة . وهو الذى يستأنف اليــوم احيــاء تعاليمه الدينية ونشر القومية • ويبدو مدى ارتباط العقيدة والقومية فى حركة الاحيــــاء فى اقوى صوره عنـــدما دعا أونو رئيس الوزارة المجلس البوذى المقدس فى رانجون عام ١٩٥٦ بمناسبة الاحتفال بمرور ألفين وخمسمائة عام على ميلاد بــوذا • وكان ذلك احيـــاء لتقاليد المجلس البوذى القديم •

والحالة الأخيرة هى اليابان • حيث العقيدة الرئيســـية هى الشينتوية أى السير فى طريق الآلهة ، وهى أصلا عبــادة الشمس ولقد كانت الشينتوية أقل أهمية من البوذية الواردة من الصين فيما بين القرن الثامن والتاسع عشر • ولكن المصلحين ، ظهــروا فيما بين ١٨٦٨ و ١٩١٢ • وكانوا يفضلون الشنتوية القومية على البوذية العالمية ، وعملوا على العودة الى الأصول النقية لتقاليدهم

وعندما اتجهت اليابان نحو المدنية الحديثة سياسيا واقتصاديا أصبحت الشنتوية دين الدولة ، وقدمت فلسفة سياسية كاملة تقوم

على أساس أن الياباني لاقيمة له وان اليابان والامبراطور هما كل شيء . وكان الغاء الاحتلال الامريكي (١٩٤٥) للشنتوية كدين رسمي للدولة امرا له دلالته . وهكذا بطريقة مختلفة تماما عما حدث في المسيحية والاسلام قامت هنا أيضا حركة احياء بارزة لكل من الدين والقومية .

الثورة السياسية والاجتماعية

الى جانب الارتباط بين الدين والقومية ، هناك عامل آخر ، وان كان مختلف الطابع ، الا أنه طابع عام وحتى نتجنب الاعادة رأينا أن نعالجه فى هذه المقدمة • وهذا هو التشابك العام للآمال السياسية والاجتماعية الذى نطلق عليه الثورة الأسيوية • وليس لهذه الثورة طابع خاص ، فكل الثورات القديمة التى نعرفهـــا منذ الثـــورة الهولندية فى القرن السادس عشر حتى الثورة الأوربية فى القرن التاسع عشر ، لها وجه اجتماعى كما أن لها وجها سياسيا أيضا • وفى كل هذه الثورات يتغير شكل الحكومات عن بعضها تغيرا يختلف اتساعا وضيقا ونتيجة لذلك تقوم طبقة جديدة مؤقتة لتصبح فى وضع السيادة الدائم بعد ذلك • والاختلاف الحـــاسم بين هذه الثورات وثورات عصرنا الحاضر ـ الروسية والصينية والاسيوية ـ هو أن فى تلك الثورات كانت القيادة فى يد طبقة واحدة، البورجوازية، وأن المطالب السياسية والاجتماعية كانت تسير فى خط واحد بينما لم يكن الأمر كذلك فى الثورة الأخيرة • ففى الثورات الحـديثة لم ترفع المطالب الاجتماعية بواسطة البورجوازية وحـــدها ولكن كان معها الفلاحون والعمال كما أن المطالب لم تكن مطـالب وأهـــداف الثورات القديمة نفسها • ففى الثورة الفرنسية كانت الجمـــاعة السرية (١٧٩٦ ـ ١٧٩٧) دليلا على الازدواج بين التيار الرئيسى للثورة والتيارات التحتية لها ، وانتهى هذا الصراع باعدام بابيف• ويبدو تيار الطبقة المتوسطة الدنيا أكثر وضوحا فى ثورة فبراير ١٨٤٨ ، وفى انتفاضة يونيو التى سحقت ، بينمـا كان الكوميون ١٨٧٦ من عمل الطبقات المتحررة ، الدنيا ، واســـتمر الكوميون لعشرة أسابيع قبل أن تسحقه قوى البورجوازية •

والثورة الروسية هى النموذج الكلاسيكى للنوع الثانى • حتى فى المحاولة الفاشلة للبورجوازية عندما حاولت أن تستولى على السلطة فى ١٩٠٥ ، فقد قام الفلاحون والعمال بدور خلاق عظيم • وبعد ١٢ سنة فى مارس ١٩١٧ حاولت البورجوازية محاولة أخرى ، ولكن اتضح فى نوفمبر من خلال الصراع ضد القيصرية أن الطبقة العاملة قد أصبحت من القوة بحيث تستطيع الاستيلاء على السلطة وتصنع بنفسها نهاية القيصرية والبورجوازية أيضا • وكانت الثورة الصينية أقل سرعة وان كانت تحمل الصفات نفسها • وقد استمر الصراع بين البورجوازية الصينية والاقطاع ١٥ سنة (١٩١١ - ١٩٢٦) اذا اعتبرنا وحدة الامبراطورية تحت قيادة شيانج - كاى - شك نهاية لهذا الصراع • وان كان النصر لم يستمر سوى وقت قليل فبعد ٢٥ سنة اضطر شيانج للهرب من الصين الى فورموزا •

وتوضح المقارنة بين الثورات القديمة وثورات عصرنا أن عامل الزمن الذى هو العامل الحاسم •

كان الوقت متسعا امام الثورات البورجوازية لكى تتطور ، بينما اليوم تأتى ثورة الطبقة العاملة فى أعقاب الثورة البورجوازية مباشرة ، أو على الأقل فى استطاعتها أن تفعل ذلك خصوصا فى آسيا حيث لا تزيد قوة البورجوازية فيها عما كانت عليه فى روسيا أو الصين • وحتى فى الهند حيث توجد أقوى البورجوازيات ، الا أنها تبدو ضعيفة بالنسبة للأعداد الضخمة لجماهير الشعب فى تلك البلاد • وما زالت البورجوازية فى كل مكان فى آسيا صغيرة ، فبينما قطعت البورجوازية الأوربية أربعة قرون (١٣٥٠ - ١٧٥٠) تستعد لممارسة سلطاتها ، اعقبها قرنان كانت تمارس فيهما هذه السلطات دون تهديد جدى من الطبقات العليا أو الدنيا ، لم يكن أمام البورجوازية الاسيوية سوى أربعة اجيال فحسب •

ويثير هذا الخلاف الزمنى عدة مسائل تضاعف من ابراز مدى

ضعف البورجوازية الاسيوية • وحتى كطبقة حاكمة لم يكن فى ستطاعة هذه البورجوازية أن تصل الى ما وصلت اليه البورجوازية الأوربية من نفوذ وخبرة ، فى مثل هذا الوقت القصير ، بالاضافة الى ما كانت تتمتع به أيضا قبل وصولها الى الحكم • وسارت البورجوازية الاسيوية فى نفس الطريق الذى سارت فيه قرينتها الأوربية من تقليد الطبقة الاقطاعية بانفاق أموالها اما على شراء العقارات أو انفاقها على مباهج الحياة ، ولم تحاول استثمار هذه الأموال أو حتى جزء منها فى التجارة أو الصناعة أو على سبيل المثال وضعها فى استثمارات انتاجية لبناء صناعة حديثة وما تستلزمه من وسائل النقل وغيرها •

ويعتبر بناء نظام صناعى حديث وشبكة للمواصلات مشكلة معقدة لأنها تكاد تكون الوسيلة الوحيدة لرفع مستوى معيشة الشعب ، وتزداد المشكلة تعقيدا نتيجة للازدياد الشديد فى عدد السكان نظرا لانخفاض معدل الوفيات بينما لا ينخفض معدل المواليد • وهنا أيضا تبدو المقارنة مفيدة بين الثورة الصناعية فى آسيا المعاصرة وسابقتها فى أوربا . فاذا حددنا ١٧٥٠ كتاريخ لبداية الثورة الصناعية فى بريطانيا ، فان الصناعة البريطانية كان أمامها قرنان من الزمان تتطور خلالهما . أما بالنسبة للدول الأخرى فكان الوقت أقصر من ذلك كثيرا ، ففى فرنسا وأمريكا استغرقت قرنا ونصف ، وفى ألمانيا قرنا واحدا ، وفى روسيا واليابان نصف قرن• وقد نتساءل عما اذا كان من الممكن أن تسير الثورة بأسرع من هذا ، ونتساءل أيضا عما اذا كانت آسيا سيتسع أمامها الوقت لمدة نصف قرن لتحقيق هذه الثورة ! هذا اذا كانت الزيادة فى تعداد سكانها لا يعنى ارتفاع مستوى المعيشة بل انخفاضه • وهناك شىء واحد يبدو واضحا جدا هو أن الفلاحين والعمال سيتشددون أكثر فى مطالبهم الاجتماعية •

ونواجه هنا أيضا بالمشاكل التى تصحب التصنيع دائما والتى

تبدو أكثر حدة بالنسبة لآسيا لأن الثورة الاجتماعية فى تقدم بينما الثورة القومية لم يتم تحقيقها بعد . وقد ذكرنا احدى هذه المشاكل وهى حاجة البورجوازية الآسيوية الى تجميع رؤوس الأموال . ولن يقدم الشرق أو الغرب هذه المساعدة الحاسمة رغم الكلمات والوعود.

ولهذا يجد زعماء الثورة السياسية فى آسيا أنفسهم فى موقع بالغ الدقة ، حتى يميل المرء الى القول بأن هذه المشـــاكل التى تواجههم غير قابلة للحل لولا الحقيقة المؤكدة وهى ان التــــاريخ لا تقف أمامه أى مشاكل لا تقبل الحل .

التقسيمات التاريخية والجغرافية

قبل أن ننتقل الى تاريخ آسيا فى نصف القرن الأخير وبالأخص الى الحركات الوطنية فى هذه الفترة ، من المستحسن دراسة هذه القارة جيدا على الخريطة أولا ..

ففى هذه القارة الكبرى .. أكبر القارات الخمس (هذه الأرقام عن سنة ١٩٥٠) يبلغ تعداد السكان : ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٠٠ر١ .. أما فى أوروبا عتعداد السكان : ٠٠٠ر٠٠٠ر٥٠٠ ، وفى أميركا : ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٢٥ ، وأفريقيا : ٠٠٠ر٠٠٠ر١٨٥ ، أما استراليا وجزر المحيط : ٠٠٠ر٥٠٠ر١٢ .

فآسيا تغطى ثلث مساحة الأرض اليابسة فى العالم وبها أكثر من نصف تعداد سكان العالم .

ومن الأسيويين يسكن ٩٠ ٪ منهم فى الجنوب وفى شرق القارة : فى المنطقة الممتدة من غرب باكستان حتى جزر اليابان .

وهذه هى المنطقة التى تنتج تسعة أعشار محصول الأرز فى فى العالم والتى يبلغ المطر فيها ٥٠ سم٣ فى العام على الأقل . ومناخ القارة ينقسم الى جاف فى الشمال والغرب ورطب فى الجنوب والشرق .

فاذا أطلقنا على المنطقة الرطبة والتى تعتبر كثيفة السكان (المنطقة الداخلية) ، وأطلقنا على المنطقة الجافة فى الشمال والغرب وهى القليلة السكان (المنطقة الخارجية) كان ذلك سهل التحديد على خريطة توضح تضاريس القارة ، كما يمكن تحديد الحدود الفاصلة بينهما .

فهناك الأرض القفراء من صحارى وهضاب على طول الحدود الشمالية والغربية للمنطقة الداخلية والتى تحدها الأرض الصخرية المرتفعة لأفغانستان وجبال الهيملايا الثلجية ، ومسطحات التبت وصحارى جوبى ، وتلال وأدغال سيبيريا الشرقية شمالى منشوريا .

ويستطيع المسافر الذى يطير فوق هذه المناطق من الخليج العربى حتى بحر اليابان أن يرى الرمال والصخور والثلج والأحراش والأشجار ..

وهذا التقسيم الى مناطق هو محاولة لتبسيط الحقيقة المعقدة الى صورة أكثر سهولة .

وفى (المنطقة الخارجية) هناك الأرض القديمة الخصبة كواحات وادى (دجلةوالفرات) وسواحل البحر الابيض المتوسط، والمنطقة الروسية جنوب شرقى بحر الأورال .

ولا يمكن اعتبار المناطق الداخلة فى (المنطقة الداخلية) أراضى كثيفة السكان صالحة للزراعة كصحارى الهند وبرارى بورنيو .

وبالرغم من ذلك فان هذا التقسيم ضرورى وعلى جانب كبير من الأهمية لنفهم الماضى والحاضر للقارة ، وقد يكون أكثر اهمية من الحدود السياسية المرسومة .

والتعبير عن المنطقة الداخلية ، والخارجية هنا هو تسمية موضوعية ، فسكان القاهرة وطهران وسمرقند، قد يعتبرون جنوب شرقى آسيا منطقة خارجية .. ولكن فى حالتنا هذه وهى وجود ٩٠ ٪ من سكان القارة تحديدا ..

اما عن الحدود الجغرافية ، فحدود آسيا من الشرق على المحيط الباسفيكى .. وعلى الساحل يطلق على هذا المحيط أسماء أخرى ، بحر بيرنج ، بحر أوكتك ، بحر اليابان ، البحر الأصفر ، بحر الصين الجنوبى .

هذه الأسماء المحلية كلها لا تعنى أى شيء لأن المياه كلها تتبع المحيط الباسفيكى الذى توجد فيه اليابان وجزر الفيليبين ، وفى الحدود بين الباسيفيكى والمحيط الهنـدى توجد أندونيسـيا .. وهنا تنقسم آسيا وتنفصل عن بقية القارات بالمحيط الهنـدى ويسمى المحيط شرقى البنجال خليج البنجـال ، وفى الغرب من ناحية الهند الخليج العربى (الخليج الفارسى) والبحر الأحمر .

ولا تمثل الحدود الطبيعية الشمالية أى صعوبة رغم أن المسافر بالطائرة عبر البحر المتجمد الشمالى سيجد بعض الصـعوبة فى تحديد مناطق المياه ومناطق الثلوج ، أما على الخريطة فالحـدود سهلة التحديد على السواحل الممتدة من مضيق بيرنج حتى نوفايا زيمليا ..

والحزام الغربى أكثر صعوبة فى التحـديد .. فرغم أن الحدود فى الماضى بين روسيا الأسيوية وروسيا الأوروبيـة كانت مخططة بحدود الأورال ونهر الاورال الذى يصب فى بحر قزوين ،

والعلماء اليوم يحددون هذا الحزام الغربى من (نوفايا زيمليا) الى الجنوب على طول الأورال حتى منابع البشورا ، ومن هناك الى الجنوب الشرقى حتى حدود جمهورية كازاكستان السوفيتية وفى منطقة بتروبافلوفسك (خط طول ٧٠) متدا الى الغرب بطـول حدود كازاكستان حتى بحر قزوين والفولجا .

ومن بحر قزوين الذى يعتبر بحرا روسيا داخليا حتى يدور الخط غربا الى جنوب القوقاز الى البحر الاسود ، بحذاء الساحـل الشمالى لتركيا والساحل الشرقى للبحر الابيض المتوسط حتى قناة لسويس .. والبحر الاحمر والذى يمتد حتى عدن وجيبوتى الى المحيط الهندى .

والحدود بين أوروبا وآسيا فيما يختص بالجزء الروسى ليست حدودا طبيعية ، لانها قد تقررت عبر التاريخ وتعتبر قبل كل شيء حدودا اقتصادية سياسية ..

وتعتبر الأورال منخفضة الى الحد الذى لا يجعلها (كما يجعل الهيمالايا) عقبة فى طريق المواصلات ٠٠ كما لا يعتبر نهرالأورال ذا قيمة كبيـــرة ٠٠ فأوروبا مفصـــولة عن آسيا بالتاريخ ٠٠ لا بالطبيعة ٠٠ وبدون التطور التاريخى كانت أوروبا تظل رغم كل شيء مجموعة من شبه القارات الأسيوية ٠

ومن هذه الصورة العامة التى شرحناها نستطيع أن ننتقل الى شرح ووصف البلاد الواقعة فى المنطقتين ٠٠ والذى يعتبر تاريخ يقظتها هو موضوع هذا الكتاب ٠٠

ويحسن القول بأن تاريخا متكاملا لآسيا لا يمكن كتابتـــه من خلال الاطار الذى رسمناه ٠ فالتركيز منصب على البلاد والتطورات الوطنية وحدها ٠

وهذه البلاد (الواقعة فى المنطقة الداخلية) هى التى اعتـــزم الكتابة عنها ٠٠ بورما ــ الصين ٠ الفيليبين ــ الهند٠ اندونيسيا٠ اليابان ٠ كوريا ٠ الملايو ٠ تايلاند (سيام) ٠ وعن المنقطة الخارجية أفغانستان ٠ مصر ٠ العراق ٠ ايران ٠ الاردن ٠ لبنان ٠ السعودية العربية ٠ روسيا الاسيوية ٠ سوريا ٠ وتركيا ٠

وبعد هذا التقسيم الذى أقمناه للمكان علينـــا اقامة التقسيم الزمنى ٠٠ أو التـــاريخى ٠ فنصف القرن (١٩٠٠ــ١٩٥٠) يمكن تقسيمه الى خمس مراحل أو فترات زمنية. . الأول من ١٩٠٠ الى ١٩١٤ وهى فترة (يقظة آسيا) والتى انتهت ببداية الحرب العالمية الاولى ٠٠ وسنشرح فيما بعد لماذا كان لهذه الحرب ذلك التأثير الخطير على آسيا ٠٠ وهنا سنلاحظ أنه حتى اندلاع الحرب كان الشعور بالعداء للاوروبيين منتشرا فى اسيا ، ولكن الأسيويين كانوا لا يزالون تحت وطأة نفوذ الأوروبيين كما أن الكثيرين منهم كانوا يحترمونهم ..

ويمكن القول دون مبالغة انه فى خلال الاربعة عشر عاما المذكورة

وكنتيجة لتطور التصنيع وزيادة عدد الموظفين المحليين من الأهالي وارتباطهم بالحكام واعتمادهم عليهم ، ازداد نفوذ الحكام الغربيين فى القارة ٠٠ ولم يتناقص ٠

ولكن عندما راى الأسيويون أنه على أرض القتـال فى معـارك الحرب فى فرنسا وروسيا يقتل الأوروبيون بعضهم بعضا كان رقم القتلى وهو أحد عشر مليونا معلوما فى آسـيا كما كان معلوما فى أوروبا ووجهت الى مكانة الاوروبيين ضربة شديدة ٠

وبدأت شعوب اسيا تحتقر الأوروبيين لسوء استخدامهم للقوة ولعدم قدرتهم على التحكم فى أنفسهم ، وجاءت الحرب أيضـا بكارثة اقتصادية ٠٠ فان هذه الحرب الرهيبة منعت عن آسـيا المصنوعات الأروبية كلها الا قليلا ولم تصدر آسيا بالتالى الكثير من محصولاتها ومعادنها ٠٠ وكان الكثير ممـا تم شحنه من هـذه المحصولات والمعادن لا يصل على الاطلاق بل يغرق بفعل الغواصات الألمانية ٠٠ وهنا أحد الأسـباب الرئيسية للنهضة الصـناعية خصوصا فى اليابان والهند ، وفتح الامكانيات للطبقة المتوسـطة الأسيوية والرأسمال الوطنى ، والكيان الأسيوى ٠

والفترة الثانية من ١٩١٤ ـ ١٩١٩ وهى سـنوات الحرب ، نستطيع تسميتها بعهد أفول النفوذ الغربى وتقوضه ٠٠ ومن سنة ١٩١٩ امتد واستمر الكيان الآسيوى فى ايجاد وسـائل جديدة للتعبير عن ذاته ٠٠ وطالبت الشعوب الأسيوية بتحقيق الوعـود التى قطعتها الدوائر الاستعمارية على نفسها خلال الحرب وضمان استمرار تأييد آسيا وتعاونها معها ٠

وكانت فى أوروبا حالة مماثلة حيث طالب العمال بالوعود التى وعدوا بها خلال سنوات الخطر ٠

ولا يجب اغفال العلاقة بين الحركات العمـالية فى أوروبا ٠٠

والحركات المعادية للاستعمار فى المستعمرات .. كرد فعل لعدم وفاء الحكومات بوعودها عند دراسة تحرير آسيا .

وعندما قامت الثورة الروسية عام ١٩١٧ ، أثناء الحرب ، اجتذبت أنظار الشعوب الأسيوية نظرا لتخليها عن كل المراكز الاستعمارية التى كانت لروسيا قبل الثورة ، وخصوصا فى ايران والصين والتى كانت خارج الحدود الحقيقية لروسيا . وكنتيجة مباشرة لذلك نشبت ثورات متعددة على نطاق كبير أو صغير فى آسيا وخاصة فى مصر .

والفترة الثالثة بين ١٩١٩ - ١٩٤١ ، وفى السنوات الاولى حدث نوع من رد الفعل ، فبذلت محاولات لاعادة السيطرة الغربية على آسيا وسيطرة الدول الرأسمالية على الطبقة العامة الاسيوية، وفى أوروبا حدثت فى الوقت نفسه محاولة مماثلة .. وفى الجزء الأول من هذه الفترة ، حوالى سنة ١٩٢٨ كانت الثورة الروسية والاتحاد السوفييتى الذى قام على أثرها ما زال فى حالة ضعف . وأثناء الحرب الأهلية (١٩١٨ - ١٩٢٢) كانت الدول الجديدة تعمل فى ظروف صعبة للتماسك فى مواجهة الجيوش المضادة للثورة بقيادة جنرالات القيصر، فضلا عن جيوش التدخل البريطانية والفرنسية واليابانية والأمريكية والبولندية .

وكانت الحرب قد انتهت فى أوروبا وتم سحق الحركات المالية الثورية فى كل مكان ، وأطلقت الحكومات الاستعمارية فى بريطانيا وفرنسا وهولندا لنفسها العنان فى اخماد القوى الوطنية التى نمت فى آسيا أثناء الحرب .. ورغم الضغط الغربى استطاعت الافكار الجديدة ان تحتفظ بوجودها ، لهذا يمكن تسمية هذه الفترة من اليقظة الأسيوية فترة الفعل ورد الفعل .

والفترة الرابعة أيضا كانت فترة حرب أيضا ، والحرب العالمية الثانية قامت فى أوروبا فى ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، وفى آسيا

فى ٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ عندما هاجمت اليابان بيرل هابور ، وانتهت فى ١٤ أغسطس سنة ١٩٤٥ باستسلام اليابان . وكانت آثار هذه الفترة التى تبلغ ٢١٩٤ يوما وليلة على آسيا ن الناحية السياسية أكثر من آثار مئات السنين .. وشارك الشرق الأوسط وباكستان بنصيب فى التعاسة والبؤس الذى عاشته سواحل الصين والهند الصينية - سيام وبورما - والملايو وسنغافورة واندونيسيا والفيليبين وكل جزر الباسفيك غرب ميدواى نتيجة للغزو اليابانى لكل هذه البلاد .. وما حدث أثناء الحرب الأولى تكرر مرة أخرى فى الحرب العالمية الثانية اذ كانت نتيجة العدوان الألمانى على أوروبا ، التى اكتسحتها جيوش هتلر ، ضعف شديد أصاب الحكومات الاستعمارية جعلها تعيد التفكير فى خطوات منح الاستقلال لمستعمراتها الأسيوية . واختلف الموقف فى هذه المرة عنه عام ١٩١٩ .. أن الغرب لم يكن باستطاعته الاحتفاظ بسيطرته على أجزاء واسعة من آسيا . ونطلق على هذه الفترة (العاصفة على آسيا) .

والفترة الخامسة وتبدأ من سنة ١٩٤٥ ليست أقل اهمية من سابقاتها وان كان من الضرورى معالجتها بطريقة أخرى . فهى مرحلة قريبة الى الحد الذى تعتبر معه جزءا من الحاضر وليست تاريخا ، ورغم الحقائق الكثيرة التى تحت يدنا عن هذه الفترة الا أنه لا يمكن اصدار أحكام تاريخية عليها . ولكى نحكم على أحداث فترة ما بعد الحرب لا بد من الانتظار عدة سنوات حتى يتضح لنا ماذا حققت الحرية السياسية للشعوب التى تحررت .

وان كنا نستطيع اليوم أن نصدر بعض الأحكام الا انها ليست دائمة .. ولهذا تركنا تاريخ الفترة الخامسة لفصل ختامى بعنوان (الانجازات وزوال الاوهام) ، والانجازات لأن الدول الأسيوية ، اما حصلت على استقلال جزئى أو تام ، وزوال الوهم لان الآسيويين اكتشفوا ان الاستقلال السياسى لايحل كل مشاكلهم ،وهذا لايدعو

للاستغراب .. ففى المشروعات العلمية عادة ، يحدث عند حل أى مشكلة ان تخلق مشكلة جديدة أو اكثر .. ففى حالة النضال من أجل الاستقلال نعمل كل الجماعات فى المستعمرات بتعاون وتنسيق فيما بينها ، ولكن هذه الجماعات اليوم تعانى من التناقضات الداخلية، فهنا عنف ، وهناك رغبة فى تجنب العنف ، فالتناقض موجود بين الطبقات الاقطاعية العليا التى يعلق عليها الأوروبيون والأمريكيون الأمل فى الاحتفاظ بسيطرتهم وبين الطبقة المتوسطة ، وكذلك الامل فى الاحتفاظ بسيطرتهم وبين الطبقة المتوسطة ، وكذلك بين الطبقة المتوسطة والعمال والفلاحين .. واذا كنا نستطيع التنبؤ بنتائج هذا التناقض ، فان الطريق الذى ستسير فيه هذه النتائج غير معروف لنا فى الوقت الحاضر .

وقد يتساءل بعض القراء عن سبب اعتبارنا لعام ١٩٠٠ بداية هذه الدراسة التاريخية ، ونجيب بأنه فى هذا العام بالذات بدات عملية التمدين

ولكى نوضح ذلك نستعمل مفهومين استخدمهما المؤرخ الفيلسوف البريطانى توينبى الذى جعل من مفهوم التحدى والاستجابة للتحدى اساسا لبحثه عن أسباب قيام الحضارات وسقوطها ..

فعدوان الغرب كان تحديا لآسيا ، وكانت مختلف ردود الفعل لهذا العدوان هى استجابة آسيا للتحدى .. وفى القرون الثلاثة ونصف من تاريخ الاستعمار كان التحدى ضعيفا وكانت الاستجابة له تقتصر على أماكن متفرقة .. فالهجوم الهولندى على جاكارتا سنة ١٦١٩ كان تحديا ضعيفا ، ورغم جريان الدماء الا أن سفينتين أجنبيتين واقامة قاعدة أجنبية لا تمثل تهديدا خطيرا .. ونتيجة للثورة الصناعية أصبح التحدى خلال القرن التاسع عشر أكثر قوة .. ثم تضاعفت هذه الثورة حتى أصبحت آسيا عاجزة عن الرد على هذا التحدى بأى شكل .. وكانت حرب الأفيون

البريطانية ـ الصينية عام ١٨٣٩ أحسن مثل لذلك .. فالأفيون كان من المنتجات البريطانية التى تزرعها الهند ، وعندما حاولت الصين وقف استيراد الأفيون وقعت تحت ضغط مهين لرفع هذا الخطر ٠ ٠وكان هذا التحدى صدمة لآسيا ، ولكنها صدمة مؤقتة، فبعد نصف قرن تقريبا بدأت تستعيد نفسها ببطء وتستعد للاجابة على هذا التحدى ، وكان هذا حوالى سنة ١٩٠٠ وهى آخر سنة قبل القرن العشرين ، قرن التحرير ٠

ومن ناحية المبدأ ، كان من الممكن الاجابة على التحدى الغربى بطريقين : فاذا قارنا السفن والجنود والتجار الذين اكتشفوا آسيا باللصوص ، فان الشعوب التى وقعت ضحية هذه السرقة كان عليها ، اما أن تغلق أبواب منازلها حتى تتجنب الخسائر ، أو تعمل على ابعاد اللص حتى تستطيع استيعاب العلم الغربى ثم تحاربه بنفس أسلحته ٠

وتعطى اليابان مثالا حيا لكل من الاسلوبين فى الرد على التحدى ٠٠ ففى سنة ١٥٣٢ نزل البرتغاليون فى اليابان ، وفى عام ١٦٠٠ وصل الهولنديون ، وفى عام ١٦٠٢ الاسبان ثم الانجليز عام ١٦١٣ وبدأت تنمو المقاومة ورأى اليابانيون فى التجار والقسس طلائع الغزو الغربى ٠٠ وبين ١٦٠٠ ـ ١٦١٢ اتخذت بعض الاجراءات المختلفة المضادة للمسيحية ، وفى سنة ١٦٣٩ استكمل الامبراطور (يمسيتجو) العملية بطرد كل الأجانب من اليابان ٠٠ وسمح للصينيين والهولنديين فقط بالبقاء كتجار ، وبعد ذلك تحدد لاقامتهم جزيرة مصنوعة فى خليج ناجازاكى تسمى دشيما ٠٠ واستمرت سياسة العزلة الوطنية حتى عام ١٨٥٠ ٠٠

وبعد الفتح الأمريكى لليابان (١٨٥٣ـ١٨٥٤) بدأت اليابان فى الاستعداد للطريق الثانى للاجابة على التحدى ٠٠ وتم هذا تقريبا سنة ١٩٠٠ فلم تعد اليابان متخلفة كثيرا فى العلوم عن

الغرب .. وفى عام ١٨٩٥ هزم الجيش اليابانى الصين ، التى تعتبر دولة كبرى ونلاحظ هنا أن الجيش اليابانى نظم على الأسس الألمانية وفى سنة ١٩٠٢ وقعت معاهدة التحـــالف البريطانية ـ اليابانية ومن ثم أصبحت اليابان دولة عظمى، وادهشت العالم سنة ١٩٠٤ـ ١٩٠٥ بالانتصار على روسيا.. وتركت هذه الهزيمة اثرا كبيراعلى كل العالم (الملون) الى حد أنه فى القرى الافريقية البعيـــــدة ـ حيث تسود الأمية ـ دقت الطبول وأشعلت النيران لتذيع أنباء هزيمة إحدى الدول الغربية الكبرى فى حرب مع دولة أســـيوية صغيرة نسبيا .. ففى المرحلة الاولى استخدمت اليابان قوتها فى طرد الأجنبى وفى المرحلة الثانية استخدمت وسائل الأجنبى نفسها فى طرده ، وفى كلتا الحالتين ظلت صادقة أمام نفسها .

وهكذا مهما إختلفت طرق الاجابة على التحدى ، بل ومهمـــا تعارضت ، كانت لها نفس النتائج بالنسبة للغرب ، ولهذا ليس غريبا أن نرى الشعوب الاسيوية تستخدم كلا الطريقين .. ولـــو بنسب متفاوتة ، وان لم تتبع نفس الأسلوب اليـــابانى .. وكان الدفاع دائما تجريبيا وغير مؤكد عند محاولة ايقاف التغلغـــــل الغربى .. وكان من الصعب التوصل الى هذه الأســـاليب لأن الامبريالية الاوربية وضعت كل العقبات الممكنة لمنع الوصول اليها. ففى الحالة الاولى كان الرد على المقاومة هجوما أشد عنفـــا وقوة ، وفى الحالة الثانية وضعت العقبـــــات أيضا فى طريق تصـــنيع المستعمرات وخلق طبقة متوســـطة ، وأوضح مثـــال على التردد والضعف نجده فى تركيا التى لا تبعد كثيرا عن أوربا . وأوضح مثال على الاستجابة الواضحة للتحدى هى اليابان التى تبعد بنفس النسبة عن كل من أوربا وأمريكا .

١

الامبراطورية التركية

تمثل الامبراطورية التركية فى تاريخ الحركة القوميـــة حالة خاصة تثير الاهتمام بدرجة ملحوظة • ففى هذه الحالة لم تضع الدول الغربية ـ لأسباب سوف نذكرها فيما بعد ـ عقبـــات فى طريق القومية ، بل لقد عملت على تغذيتها ، وهذا موقف كانت له جوانبه السيئة مثلما كانت له جوانبه الحسنة ••

لقد هاجمت أوروبا فى العصور الوسطى (٤٠٠ هـ ـ ١٤٠٠ م) موجات الغزاة القادمين من آسيا ابتداء من الهون(Huns)فى القرن الرابع الى الأتراك العثمانيين فى القرن الخامس عشر • وأشهـــر هؤلاء الغزاة من وجهة النظر الأوروبية هم الهون ، المغول الرحـــل الذين قدموا من شمال بحر قزوين وغزوا أوروبا حوالى عام ٣٧٠، والآفار الأتراك الرحل الذين استخدموا هنغاريا فى القرن السادس قاعدة لشن هجماتهم الوحشية ، والتتار الذين أخضعوا روسيا كلها لسلطانهم فى الفترة ما بين ١٣٠٠ ـ ١٥٠٠ ، وأخيرا العثمانيون وهم من نطلق عليهم اليوم ببساطة اسم الأتراك •

وصل العثمانيون آسيا الصغرى حوالى عام ١٢٠٠ م ، وقهروا الفـــلاحين الأناضوليين الذين كانوا يستوطنونها حينذاك • وقد اشتقوا اسمهم من اســــم عثمان الأول (١٢٩٠ ـ ١٣٢٦) الذى أسس امبراطورية وأسرة من الملوك اســـتمرت حتى عام ١٩٢٢ • واستطاعوا بقيادة محمد الثانى الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية (أو الامبراطورية البيزنطية) فى ٢٩ مايو عام ١٤٥٣ ، ثم شقوا طريقهم نحو أوروبا حتى تمكنوا فى

القرون التالية من احتلال جزء غير قليل منها . وفى القرن السادس عشر حققت الامبراطورية التركية أقصى توسعها ، وأصبح حكم الأتراك يمتد من الخليج الفارسى الى أبواب فيينا ، ومن بحر قزوين الى الجزائر . وكان سكان الامبراطورية من الأوروبيين ـ وهم شعوب هنغاريا والبلقان ـ مسيحيين ومن ثم كان النفوذ الغربى قد ظهر بالفعل على الأقلية التركية بشكل واضح حين بدأت الامبراطورية التركية فى القرن الثامن عشر تنهار وان كان ذلك قد حدث ببطء . وبدأت مشاعر الأوربيين المختلطة تجاه الأتراك سواء منها الاعجاب والخوف تتغير تدريجا ، وصار التركى محتقرا مبخوس القدر . وكانت علامات الانهيار سلسلة من النكبات العسكرية بدأت بطردهم من فيينا عام ١٦٨٣ وانتهت بهزيمتهم الكاملة فى الحرب العالمية الأولى . كانت كل حرب لهم مع النمسا أو روسيا تنتهى بفقد قطعة من الأرض . وفى القرن التاسع عشر لقب سلطان تركيا (بالرجل المريض) . وقد استخدم هذا التعبير لأول مرة عام ١٦٨٤ . وكان يمكن أن تضيع تركيا الأوروبية قبل نهاية هذا القرن لو لم تعمل الدول المتنافسة فرنسا وبريطانيا وروسيا على مساندة الامبراطورية المنهارة . وكان الصرب واليونانيون أول الشعوب التى تخلصت من نير الأتراك عام ١٨٣٠ . ثم جاء دور (Montenegrins) سكان الجبل الأسود ، البلغار ، والرومانيين (١٨٦٧) . وفى عام ١٨٨٢ احتل البريطانيون مصر بدعوى ضرورة هذا الاحتلال دفاعا عن الطريق البحرى الى الهند عبر قناة السويس (التى افتتحت سنة ١٨٦٩) . وتعد مشكلة قناة السويس مشكلة تاريخية شائكة لا تزال لها حدتها(١) . وهى نموذج فريد يبين كيف تساعد دراسة التاريخ على فهم الأحداث فى أيامنا الراهنة .

---

(١) انتهت مشكلة قناة السويس بتاميمها عام ١٩٥٦ ، وخضوع الشركة للسيادة المصرية وادارتها بيد المصريين .

وقد أوجدت المضايق مشكلة مماثلة . ففى القرن التاسع عشر طمعت روسيا فى القسطنطينية أولا لأنها كانت تعتبر بالنسبة للكنيسة الأرثوذكسية مدينة مقدسة ، وثانيا لرغبة الروس فى ايجاد ممر مفتوح بين البحر الاسود والبحر الأبيض المتوسط ، وكانت بريطانيا هى التى حالت مرة أخرى دون تحقيق حلم روسيا باحتلالها للطريق البحرى الى الهند . كما أن بريطانيا كانت تسعى الى اضعاف الامبراطورية التركية . وكانت الفظائع لتى لقيها الأرمن ذريعة دفعت كلا من روسيا وبريطانيا الى التنافس حول تنمية القومية الأرمينية ، كما عملت كل منهما من قبل على تنمية القوميات اليونانية ، الصربية ، البلغارية والرومانية .

أما مصر فكانت هى الأخرى تمثل حالة خاصة . فى عام ١٧٦٩ أعلن على بك الوالى استقلال مصر . ثم جاء محمد على وابنه ابراهيم، فأيقظا - أو بالأحرى - هزا مصر من سباتها الذى دام قرونا طويلة - ليس حبا فى مصر - ولكن ليتمكنا من شن حرب حديثة على النمط الغربى . وقد أدت جهودهما الى بعض النتائج . اذ ارتفع عدد السكان فى مصر فى مدى جيل واحد من ١٨٢١ - ١٨٤٧ بمعدل ٧٥ ٪ . واذا نحن لم ننتبه بعض الشىء الى هـذه الفترة التاريخية المبكرة ، فاننا لن نستطيع أن نفهم أعمال السياسيين المصريين فيما بعد أمثال سعد زغلول باشا ، مصطفى النحاس باشا الذى تحدى الأمم المتحدة فى مسألة ارسال امدادات البترول الى اسرائيل عن طريق قناة السويس ، جمال عبد الناصر الذى أمم القناة .

عندما حلت سنة ١٩٠٠ كانت الامبراطورية التركيـة فى ايدى الدول الاوروبية سياسيا واقتصاديا . فقد تولت رؤوس الأموال الغربية انشاء البنوك والورش وخطوط الملاحة والموانىء والطرق والمواصلات البريدية والجمارك كما تولت ادارتها . وكان السلطان يحصل على جميع القروض التى يحتاجها ولكن بفوائد فاحشة . كان الفلاحون الاتراك والشعوب الخاضعة للسلطان هى التى تحمل عبء

تسديدها فى آخر الأمر وخضعت أنظمة الجمارك كلها ، واحتكارات الملح والدخان وضرائب أخرى كثيرة للاشراف الغربى • ولم تكن بريطانيا وفرنسا وروسيا هى التى طمعت فى تركيا فحسب ، بل أن ألمانيا أيضا نهجت السبيل الامبريالى ، وكان ذلك أمرا طبيعيا لأن العسكريين الأتراك كانوا كالعسكريين اليابانيين يثقون ثقة لا حد لها فى مقدرات الألمان العسكرية ، خاصة بعد انتصار ألمانيا على فرنسا عام ١٨٧٠ • وكانت الحرب البروسـية الفرنسـية حربا هجومية بسبب طابعها الحديث جدا حينذاك دهشة وقلقا ـ استفاد البروسيون فى عملياتهم الحربية استفادة عظيمـة بالبرق • وفى عام ١٩٠٣ حصل الألمان على امتياز انشاء خط حديد بغداد ما بين سكوتارى (اسكودار الحالية) على الجانب الشرقى من البوسفور فى مواجهة اسطنبول) عبر قونيا، حلب، الموصل الى بغداد والبصرة• واستولى الفزع على بريطانيا لأنها رأت فى الامتياز الالمـانى محاولة لمد النفوذ الالمانى الى حقول البترول فى الموصل والخليج الفارسى• ولهذا سعت بريطانية الى عرقلة انشاء هذا الخط الحديدى الخطر ومواجهة النفوذ الألمانى بأن استغلت فى براعة الامتيازات الاجنبيـة وكانت تلك معاهدات أخرجت رعايا دول غربية معينة من اختصاص القوانين التركية ، وقد ألغيت هذه الامتيازات لأجنبية التى عرفت أيضا فى الصين وغيرها من البلدان المستعمرة •• ألغيت فى تركيا عام ١٩١٤ حينما كان الألمان يجاهدون لاستمالة تركيا الى جانبهـم فى الحرب العالمية الأولى • وخشى أعداء ألمانيا حدوث مثل هذا • التطور •

ظهر فى ذلك الوقت رسم كاريكاتورى يبين السلطان جالسا فوق قنبلة ، وهو يدخن غليونه فى استرخاء بليد • ولكن الأحداث بدأت تتحرك فى عام ١٩٠٦ • ففى هذه المرة انبعثت الثورة ـ ليس من جانب الشعوب الخاضعة ـ بل من داخل تركيا ذاتها • اذ انضم مصطفى كمال (١٨٣٩ـ١٨٨٠) الضابط الصغير الذى أصـبح

فيما بعد أول رئيس للجمهورية التركية - الى غيره من الثوريين في جمعية سرية تحمل اسم الوطن Father land وكان تأسيس هذه الجمعية في بداية أمره مجرد رمز ، فانه الى جانب ذلك كانت هناك جمعيات أخرى في طريقها الى التكوين أهمها لجنة الاتحاد والتقدم التي وجدت منذ عام ١٨٩١ ، وكانت هذه هي المنظمة التي يقال لها « تركيا الفتاة » وكان برنامجها يستهدف تجديد الدولة ، واقامة ديموقراطية حرة وبرلمان ، والغاء الامتيازات الأجنبية » ولقد ظهر تأثير منظمة تركيا الفتاة في ناحيتين • أولا أدرك زعماؤها ما لم يدركه المصلحون الآخرون في الشرق على الاطلاق أو أدركوه متأخرين جدا ، وهو انه ليس يكفي مجرد اتخاذ الطراز الغربي في الحياة بل لا بد من اتخاذ خطوات أخرى • اذ اعتقدوا أن أول شيء ينبغي عليهم أن يحققوه هو أن يجعلوا دولتهم تركية خالصة ، أي أنهم كانوا قوميين ، ولم يكن في هذا الهدف ذاته ما يسترعي الانتباه ، غير أن النتائج التي ظهرت بعد ذلك كانت بالتأكيد ملحوظة الأثر ، وهذا ما يجعل من ثورة « تركيا الفتاة » حالة متميزة بصفاتها الخاصة • ففي الظروف القائمة حينذاك كانت مبادىء القوميات تعني في التطبيق انتهاء وحدة الامبراطورية التركية ، وتضاؤل حدود امبراطورية شاسعة الى دولة تركية صغيرة تقع في آسيا الصغرى ، وهي الجزء الوحيد من تلك الامبراطورية ، الذى لا يسكنه غير الاتراك ، ولكن تفكيك الامبراطورية لم يكن هو ما يريده هؤلاء الاتراك • ولهذا فعندما نجحت ثورتهم اضطهدوا الأقليات بصورة لا تقل عنفا عما كان يفعل السلطان ، وهكذا كان جواب أنصار « تركيا الفتاة » على التحدى الأوربي خاطئا •

ففي يوليه سنة ١٩٠٨ نشبت الثورة في ريزنا (Rezna) في مقدونيا بقيادة نيازى بك ، أحد كبار قادة الثورة في تركيا ، وكانت مقدونيا اقليما على الحدود يسكنه البلغار ، والصرب واليونانيون • وكانت هذه الثورة نتيجة خطة أنجلو - روسية

تستهدف فصلها عن الدولة التركية • وأرغم السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦-١٩٠٩) نتيجة للانقلاب على تنفيذ دستور ١٨٧٦ الذى كان قد حكم عليه بالموت ، لم يقاوم السلطان ، وأعلن أن وزراءه قد خدعوه فلم يرغم على التنازل عن عرشه ، وانتشرت المظاهرات الصاخبة التى قام بها الوطنيون المضطهدون فى جميع أنحاء الامبراطورية بعد أن أحسوا بأن ساعة الحرية دقت لهم بالمثل • لم تضيع النمسا الوقت وانتهزت فرصة الاضطرابات فى تركيا لتضم اليها البوسنة والهرسك فورا • ولو أن النمسويين حسوا أن ضم هذين الاقليمين سوف يصبح أحد أسباب الحرب العالمية الاولى ما نفذوه • وفى ابريل ١٩٠٩ حاولت العناصر المحافظة القيام بثورة مضادة فى اسطنبول • ولكن جيش التحرير تمكن من اخمادها خلال خمس ساعات • وخلال تلك الساعات الخمس تصرف السلطان بغباء دفع الى عزله ونفيه خارج البلاد • ونصب أخوه الضعيف محمد الخامس على العرش (١٩٠٩-١٩١٨) وعندئذ أقر البرلمان سلسلة من الاجراءات لاصلاح الجهاز الادارى ومعالجة الشئون الاقتصادية ولكنها لم تذهب الى حد بعيد • ولما أصيب مصطفى كمال بخيبة الأمل انسحب من العمل السياسى وكرس جهوده لاقامة جيش على أحدث النظم ، ولكنه لم يتخل لحظة عن هدفه فى اقامة دولة تركية أصغر لها قوميتها الخاصة •

انتشرت الاضطرابات فى أنحاء الامبراطورية جميعا • وأخمدت الثورات فى ألبانيا ، أرمينيا ، وفى شبه الجزيرة العربية مع اراقة قدر كبير من الدماء • وفى عام ١٩١١ استغلت ايطاليا هذه الظروف فاستولت على طرابلس - وهى الآن جزء من ليبيا ولكنها كانت حينذاك جزءا من الامبراطورية التركية • عندئذ حقق مصطفى كمال سنة ١٩١٢ أول انتصاراته فى طبرق • الا أنه كان انتصارا عقيما • فقد تعرضت تركيا للهجوم من جانب اليونان ، بلغاريا ، والصرب ومنطقة « الجبل الاسود » (حرب البلقان الاولى

اكتوبر ١٩١٢ - مايو ١٩١٣) • ولحقتها هزيمة سلخت عنها بعض أقاليمها وصارت طرابلس مستعمرة ايطالية وظلت كذلك حتى سنة ١٩٤٣ وكان يمكن أن يخرج الاتراك نهائيا من أوروبا لولا تنازع المنتصرين على الغنائم ، فان بلغاريا - التى شاركت بالنصيب الأكبر فى هزيمة تركيا - طالبت بكل مقدونيا • وهو طلب لم يلق ارتياحا من حلفائها • فبدأوا عندئذ فى شن هجوم عليها • ووجدوا أنصارا مؤيدين لهم فى تركيا • والحق أن السلطان وحكومته أظهروا شيئا من التردد وكانوا مستعدين للتخلى عن أدريانا وألبانيا • ونتيجة لذلك وقع فى ٢٣ يناير سنة ١٩١٣ انقلاب جديد فى ألبانيا بقيادة أنور باشا الوطنى المتطرف • واستعاد الأتراك أدريانا فى حرب البلقان الثانية (يونية - يولية سنة ١٩١٣) التى وقعت من بلغاريا ضد اليونان وصربيا ورومانيا وتركيا • وفى هذه العملية كان جنرال ليمان فون ساندرز الألمانى هو القائد الفعلى وكان قد عين لتنظيم الجيش التركى • ويعد تعيينه أحد الأسباب الثانوية لقيام الحرب العالمية الأولى • حيث كان الفرنسيون والروس بصفة خاصة يستاءون لوجود جنرال المانى فى أرض أجنبية ، وفى ذلك العام نفسه دعا الطلبة العرب فى باريس الى عقد أول مؤتمر للوحدة العربية • وطالب المؤتمر بالحقوق السياسية الكاملة للعرب كما طالب لهم بنصيب فعال فى ادارة الامبراطورية التركية •

فى مطلع الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ ، دخلت الحركة الوطنية فى تركيا مرحلة جديدة • فقد خشى الانجليز أن تأخذ تركيا جانب الألمان اذا ما وقعت الحرب ، فسعوا الى استمالة حسين شريف مكة الى جانبها • مقابل عرض شامل لتحرير البلاد العربية واقامة دولة عربية حرة • وكان هذا مثلا آخر للطريقة التى شجعت بها الدول الغربية ، القومية العربية •

كان حسين حاكما من قبل تركيا على الأماكن المقدسة ، ولكنه

كعربى كان مناهضا للاتراك • وعرضت عليه بريطانيا مساعدتها ضد الاتراك اذا استلزم الأمر • وفى النهاية وقفت تركيا الى جانب المانيا ، وهكذا استلزم الامر تنفيذ الوعد • ونتيجة لذلك اعلن استقلال البلاد العربية ، وفيما بعد أصبح عبد الله ملكا على شرق الاردن ، وفيصل ملكا على العراق وكلاهما من أبناء حسين ، وكان على بريطانيا أن تتحمل عندئذ نتائج سياستهم « المناصرة » للعرب فى منطقة الشرق الاوسط كلها •

ونختتم هذا الفصل بملاحظتين عامتين •• فمن ناحية لم توجد فى هذه المرحلة حركة شعبية فى تركيا ، اذ كانت الحركة الوطنية من صنع الضباط والمثقفين ، وتعتبر هذه فى الواقع ظاهرة عامة •

ويمكن كقاعدة تقسيم مقاومة آسيا لاوروبا الى ثلاث مراحل : المرحلة الاقطاعية حيث الطبقة الارستقراطية والطبقة العليا تشكل نواة هذه المقاومة •• ثم تأتى المرحلة الثانية التى تتميز بطابع خاص هو ازدياد مقاومة المثقفين وتأييد الجنود لهم فى أكثر الأحيان وعندئذ فحسب تجىء المرحلة الثالثة حيث نرى حركة شعبية خالصة يقوم فيها العمال والفلاحون على حد سواء ضد القوى الاستعمارية •

ومن ناحية أخرى ، يجب ألا نغفل يقظة المناطق التى كان يحكمها الأتراك ، وهنا ينبغى أن نشير الى ازدياد عدد الصحف التى بدأت تظهر فى الفترة من ١٩٠٤ـ١٩١٤ • ففى لبنان ارتفع عدد الصحف من ٢٩ الى ١٦٨ صحيفة ، وفى سوريا من ثلاث صحف الى ٨٧ صحيفة • وفى فلسطين من صحيفة واحدة الى ٣١ صحيفة ، وفى العراق من صحيفتين الى سبعين صحيفة • وفى الحجاز حيث لم توجد أى صحف ، وجدت ست صحف عام ١٩١٤ • وأصبح عدد الصحف فى المنطقة العربية كلها عام ١٩١٤

عشرة أضعاف ما كان عليه عام ١٩٠٤ يضـــاف الى ذلك أنه كانت هناك صحف أخرى يصدرها المنفيون وتوزعها حكومات أجنبيـــة معينة فى تركيا ، هى الحكومات التى كان لها بموجب امتيازاتها الأجنبية بريدها الخاص الذى لا يستطيع البـــوليس التركى أن يتدخل فيه .

وهكذا ساعد الاوروبيون على نشر الادب الثورى وفى اعتقادهم أنهم بهذا يضعفون الامبراطورية التركية . ولم يدركوا أنهم كانوا أيضا يقوضون مركزهم نفسه ، واذ كانوا واثقين بتفوقهـــم لم يفكروا فى أن القومية التى ساهموا فى بعثها ســـوف تنقلب فى النهاية ضدهم ، فان السياسى العادى لا يكون لديه عادة مثـــل هذه البصيرة ليشوف المستقبل ، فلم يكن أحد فى لندن أو باريس أو برلين أو سانت بطرسبرج يتخيل قط قيام أمثـــال مصطفى كمال والنحاس باشا أو ابن سعود .

٢

الامبراطورية اليابانية

كانت اليابان هى التى ردت على تحدى الغرب ردا ايجابيـــا ومتطرفا فى الوقت نفسه • ففى القرن السادس عشر طرد الشوجون جميـــع الاجانب ـ باســـتثناء الصينيين والهولنديين ـ الذين قصر وجودهم على جزيرة ديشيما الصغيرة (حـــوالى ٢١٠٠ ياردة مربعة) ـ ولقد ظل مركزهم التجـــارى خلال قرنين هو نقطـــة الاتصال الوحيدة بين اليابان والغرب • ومنذ ما رست فى عام ١٨٥٣ ثم فى عام ١٨٥٤ فصيلة بحرية أمريكية بقيادة الكومودور بيرى فى خليج ادو بالقرب من اوراجا ، وطلبت السماح بدخـــول السفن الأمريكية الى عدد من الموانى اليابانية لم يعـــد من الممكن فى وضوح الاستمرار فى سياسة العزلة خاصة وان اليابانيين ظلوا لفترة متزايدة يقولون ان العزلة التى ربما كانت مفيدة فى وقتهـا صـــارت تجلب من الأضرار أكثر مما تجلب من النفـــع حيث ان اليابانيين يستطيعون فى نهاية الامر ان يتعلموا الشىء الكثير عن الغرب •

ولقد استسلمت حكومة الشوجون لمطالب الأمريكيين (معاهدة كانا جاوا : مارس سنة ١٨٥٤) وتخلت اليابان عن سياسة «حماية اليابان من الأجنبى» التى كانت أساسا من صنع طبقة النبـــلاء الرجعية ، وكان لابد أن تنقضى مع هذه السياسة الأوضاع الاقطاعية وكان الشوجون ممثل الارستقراطية العسكرية فى النظام القـــائم حينذاك يتولى الحكم باسم الامبراطور ولكن حدث فى ٣ ينـــاير سنة ١٨٦٨ أن تولى الامبراطور موتسهيتو (١٨٦٧ـ١٩١٢) الحكم

بنفسه • وفى ١٤ نوفمبر ألقى فى بلاطه خطابا حول ادخال المدنية الحديثة فى البلاد ودعوة برلمان يجمع صفوف الشعب واتخاذ اجراءات اجتماعية واقتصادية ، والغاء امتيازات النبلاء المبالغ فيها • وتضمنت الخطبة نقطتين هامتين ، فاولا وقبل كل شىء حث اليابانيين على جمع كافة المعارف التى يعرضها العالم عليهم للمساعدة فى ترقية الامبراطورية الجديدة • وثانيا أعلن أنه يجب أن تتاح الفرصة لكل يابانى كى يضع مقدراته كلها فى خدمة المجتمع •

واستغرق الأمر بعض الوقت كى تزول الدهشة من مثل هذه الخطوة الواضحة والحاسمة • وتحين أنصار الشوجون المخلوع الفرصة المناسبة لاعادة عجلة التاريخ الى الوراء (٢٧ يناير سنة ١٨٦٩) • ولكن القوات الامبراطورية لم تلبث أن سيطرت على الموقف خلال خمسة شهور • وبدأت اليابان فى قليل من الشك فى البداية ، ثم بقدر أكبر من الاقتناع تسير فى طريق التطور على نمط الحضارة الغربية •

وكثيرا ما أعطى هؤلاء الذين لم يروا فى هذا التغيير الا مجرد تقليد بل ومحاكاة انطباعا خاطئا عن هذه الفترة ، فالحق أن اليابان عملت على أن يتلاءم كل ما أخذته عن الغرب مع تصوراتها ومعتقداتها الخاصة • ولقد تم تطوير الجيش فى البداية على الطراز الفرنسى ثم الألمانى ، نتيجة للاثر العميق الذى أحدثه فى جميع البلاد انتصار الألمان الساحق على الفرنسيين عام ١٨٧٠ • أما الأسطول الذى استعين على تكوينه فى الأصل بمستشارين هولنديين فقد تم تطويره على النمط البريطانى • فلم تكن اليابان مثل تركيا تسكنها شعوب مختلفة ، لها أوضاع مختلفة ولغات مختلفة . بينما ولم يكن فى اليابان دولة مستعلية على القوميات الداخلة فيها ، تتحطم حين تأخذ بأساليب الحضارة • كانت اليابان مملكة مؤلفة من جزر تجمعها قومية واحدة ! وقد بدأت تبحث

عن امكانيات التوسع فيما وراء البحار ، واقامة امبراطورية • وفى السبعينات ضمت اليابان اليها جزر كوريل وبونين • وأرخبيل ريوكيو ، ثم اضافت الى امبراطوريتها بعد حربها مع الصين سنة ١٨٩٥ جزر بيسكادوو وفرموزا •

وفى ٣٠ يناير سنة ١٩٠٢ وقعت فى لندن معاهدة التحالف بين اليابان وبريطانيا وفيها اعترف بمصالح اليابان الخاصة فى كوريا • وكان معنى هذه المعاهدة بالنسبة لليابان الاعتراف بها كدولة مستقلة وكحليف له قيمته • ولقد اعتقد الكثيرون فى بريطانيا أنه من الاذلال لبلادهم الفخورة بنفسها أن تتحالف مع دولة غير بيضاء ، غير أنه رؤى من ناحية أخرى أن هذا التحالف أمر ضرورى لأن روسيا كانت تشق طريقها الى الشرق بدرجة كان يمكن معها أن تتهدد بالخطر مصالح بريطانيا التجارية فى الصين وربما فى اليابان نفسها بعد ذلك بقليل لو لم تعقد مثل هذه المعاهدة •

ثم وقع ما لم يكن منه بد • فان الروس ـ وهم الاوربيون الوحيدون الذين تهددهم التوسع اليابانى ـ قاموا بغزو شمال كوريا • وحين جاء رد اليابانيين على هذه الاهانة بالهجوم فى ٨ فبراير سنة ١٩٠٤ على القاعدة البحرية الروسية فى بورت أرثر ـ لم يكن هناك من يتصور أن هذا الهجوم سيكون نذير العاصفة فى تاريخ آسيا الحديث كله • ففى أول مايو هاجم الجيش اليابانى الروس فى حوض نهر يالو • وفيما يلى فقرة من احدى المقالات المتعددة التى قدرت تلك الحادثة التاريخية بعد خمسين عاما من وقوعها تقديرا صحيحا •

« وادى نهر لا يزيد اتساعه عن ميل أو ميلين • شواطئه الغربية منحدرة ومتحجرة ، والشرقية تنحدر فى رقة الى التلال ومياه نهر يالو تتدفق فى عدة فروع الى البحر الاصفر ، ويبلغ عرض المجرى الرئيسى للنهر حوالى ١٤٠٠ ياردة • وفى الشمال

يشرف تل النمر Tiger Hill على الشاطىء الغربى ويسيطر على الأرض الواقعة على نهر يالو.. وفى أول مايو عام ١٩٠٤ .. على الحدود بين منشوريا وكوريا .. فى « أرض الصباح الهادىء » تمكنت دولة غير بيضاء من هزيمة دولة أوروبية فى أول حرب وقعت بين اليابان وروسيا . وفى هذه الحرب هزمت روسيا ، وانتصرت اليابان . ما مغزى ذلك ؟.. كانت روسيا لا تزال احدى الدول الكبرى ، ولم تكن اليابان قد وصلت بعد الى هذه الدرجة . لكن دول آسيا لا يمكن أن تنسى معركة يالو والحرب التى دارت حولها .. ولا بد من الاعتراف بأن البيض تلقوا بعض الضربات القاصمة فى حروبهم مع الشعوب الملونة .. ألم يقم رجال الزولو بابادة فصيلة بريطانية عند ايزانديهوانا ؟ ألم يمزق الأحباش قوة ايطالية اربا فى عدوة ؟

لكن ما حدث فى يالو كان مختلفا جدا .. ان الرجال الصفر الصغار قد ألقوا جسورهم أثناء الليل على مجرى النهر الرئيسى . واستطاع الروس فى خنادقهم أن يسمعوا خشخشة القادمين اليهم .. وكانت معدات اليابانيين قليلة ، ولهذا حشدوا السفن الصينية واستخدموا محاريث الفلاحين الكوريين مراسى للسفن .. وسرعان ما استطاعت جماعة صغيرة منهم احتلال تل النمر الذى يبدو أن الروس لم يكونوا يعيرونه أى اهتمام . ولما طلع الصباح . أبصر الروس صفوفا طويلة من اليابانيين تخوض كتفا الى كتف أقرب نهر اليهم .. والماء يرتفع الى صدورهم ، وخيم صمت رهيب لأن الروس لم يطلقوا النار ، وصاح ضابط يابانى « انه لأمر فظيع أن ننتظر حتى يطلق العدو النار » .

« وكسب اليابانيون المعركة التى انتهت عند الغروب » وعزلوا جزءا من الجيش الروسى .. غير أن كتيبة سيبيرية ذات بأس شنت هجوما مضادا مكن هذا الجزء من الفرار عبر ممر جبلى .. فى هذا اليوم من أيام الربيع كان أربعة آلاف قتيل وجريح يرقدون

فى الحقول حول تجورينتين .. بينهم حوالى ألف يابانى .. نصر للجنس الأصفر .. حقا ان الذين كانوا يصيحون « بنزاى » وهم يقاتلون كانوا ٣٥ ألفا من اليابانيين مقابل ١٥ ألف روسى ولكن فن الحرب هو الأقوى فى ميدان القتال .. وقد فعلت اليابان كل ما فى وسعها لتضمن ذلك .. فقد أثير حماس الناس للحرب وأعد لها كل شىء بدقة .. وسار الجنود مئات الأميال عبر كوريا فى شهور الربيع الرطيبة . ولم يكن المنتصر دولة آسيوية فحسب ، ولكنها أنتصرت أيضا بجدارة » .

واستمرت الحرب .. ودامت المعركة الكبرى فى لياو - يانج فى منشوريا من ٢٥ أغسطس الى ٢٤ سبتمبر ولكنها قررت مصير البلاد .. وأرغم الصنم الروسى الضخم على التراجع بأرجله المصنوعة من الصلصال تجاه موكدن .. واستسلمت بورت أرثر فى ٢ يناير سنة ١٩٠٥ .. وتحطم اسطول روسى مؤلف من ٣٢ سفينة بالقرب من توجو فى مضيق تسوشيما ، كان قد دار حول آسيا من بحر البلطيق الى بحر اليابان . ولم يستطع الروس أن يفعلوا شيئا بعد ذلك ..

وفى معاهدة بورتسموث التى عقدت بوساطة الرئيس الامريكى تيودور روزفلت - اتفق على أنه يجب أن تكون كوريا منطقة نفوذ يابانية ، ثم ضمت اليها عام ١٩١٠ - وأن تضم سخالين الجنوبية - الواقعة فى مواجهة شاطىء سيبيريا - الى اليابان - وحصلت اليابان كذلك على شبه جزيرة ليوتونج الصينية مع بورت أرثر ، ولم ترد الى الصين الا عام ١٩٤٥، وأخيرا اعترف الطرفان بمنشوريا اقليما صينيا .

الا أن المعاهدة لم تلق استجابة شعبية فى اليابان لأنها لم تتضمن بندا خاصا بالتعويضات ، فقد انتهجت الدول الغربية فى هذه المسألة الدقيقة سياسة عنيفة تجاه آسيا . وظلت متمسكة بها ، لأن الغرب إعتقد دائما انه من المستحسن الا تصبح اليابان

على درجة كافية من القوة تتيح لها زعامة آســـيا • ولكن الحرب أظهرت بكل جلاء أن اليابان قد استيقظت حقا ••

أما انه كانت هناك يابان أخرى غير اليـــابان التى كانت فى عهود حكم الجيش والامبرياليين ، فذلك ما ظهـــر فى تلك الفترة نفسها فقد حدث فى المؤتمر الاشتراكى الـــدولى الذى عقـــد فى أمستردام عام ١٩٠٤ ـ أثناء الحرب ـ أن تصافح الوفدان اليابانى والروسى بالرغم من حالة الحرب القائمة بين البلدين اظهارا لتحالف العمال فى البلدين ليس فى الحرب بين الدولتين بل فى الحرب بين الطبقات وكان رئيس الوفد اليـــابانى فى المؤتمر هو « سن كاتا ياما » وحين عاد ألقى القبض عليه وعلى بقية أعضاء الوفد ووجهت اليهم تهمة « خيانة الوطن » •• وفى عام ١٩٠٧ سحق البـــوليس مظاهرة كانت تطالب بالافراج عنهم •

فى أثناء ذلك الوقت كانت اليابان قد تحولت من امة فلاحين عام ١٨٦٨ الى دولة صناعية •• وفى عام ١٨٧١ ظهرت أول صحيفة وفى عام ١٨٧٢ افتتح أول خط حديدى من طوكيو الى يوكوهاما • وفى عام ١٨٩٠ كان هناك مائتا مصنع تعمل بالآلات البخارية •• وارتفعت حمولة السفن البخارية من ١٥٠ ألف طن عام ١٨٩٣ الى مليون ونصف مليون طن عام ١٩١٣ وفى عـــام ١٩٠٦ ـ ١٩٠٧ استولت الدولة على سبعة عشر خطا حديديا خاصا ، فأتاح ذلك تنمية جهاز رابح للسكك الحديدية • وفى العام نفســـه ١٩٠٧ أقيم خط كهربائى « ضغط عـــال » بين ياماناشى وطوكيو مارا بالحقول الصغيرة للفلاحين الذين أصبح فى امكانهم عندئذ استخدام الضوء الكهربائى والطاقة الكهربائية فى تطوير الصناعات المنزلية فيما بعد •• ولكن شركات النسيج الكبرى كانت هى التى استفادت فى البداية أعظم الاستفادة من الطاقة الكهربائية الرخيصة التى استمدت بسرعة من الأنهار المنحدرة بشدة من الجبال مع شلالاتها العظيمة اذ لم يكن العامل يكلف صاحب العمـــل كثيرا ـ فلم تكن

لنقابات العمال أهمية • وصار فى مقدور اليابان الدخـــول فى حلبة المنافسة الاقتصادية خاصة ضد صناعة القطن البريطانية •• وشملت المنافسة جميع أنحاء شرقى آسيا وجنوبيهـــا ، وامتدت غربا الى اثيوبيا وحتى الى أوروبا •

وكانت أهم واقعة فى هذا الصدد هى تركز الصناعة اليابانية كنتيجة مباشرة لهذا التطور المفاجىء •• فقد أنشىء البنك الصناعى الياباني •• نيبون كوجيو جينكو عام ١٩٠٠ ، وقام البنك باستثمار رؤوس أموال أثرياء الريف وقد كانت غير مثمرة حتى ذلك الوقت ـ فى الصناعة التى كان يسيطر عليها كلها تقريبا أربعة إحتكارات كبرى مؤيدة من الدولة هى التى تسمى زايباتو • والعلامة الواضحة فى تطور اليابان هى أن النظام الاقطاعى للمجتمع لم يتأثر كثيرا بوصول الرأسمالية وربما كان ذلك ببساطة لحدوث كل شيء بمثل هذه السرعة •

وحين نلتفت الى الفلاح فلا بد أن نوضح أن حالته ظلت سيئة بل ربما ازدادت سوءا ، نتيجة لازدياد السكان وتوزيع الأرض •• وقد كان مألوفا حين يموت الفلاح أن تقسم أرضه بين أولاده •• وقبل حلول عصر مييجى ـ عصر التنوير الذى بدأ عـام ١٨٦٨ ـ كانت الحكومة تتخذ اجراءات قهرية لخفض عدد الاطفال • كانت ممارسة عادة قتل الاطفال أمرا عاديا فى اليابان وأمرا مفهوما مثلما كان الحال فى عدد كبير من جزر بولينيـزيا قبـل أن يستعمرها الاوربيـون لأن الجزيرة المعزولة لا تستطيع أن تحتمـــل الا عددا محدوداً من السكان •• وكان ثمة مبدأ خلقى مقبول بصفة عامة فى اليابان أثناء تلك القرون •• مؤداه أن مما ينافى الفضيلة أن يكون للمرء أكثر من طفلين أو ثلاثة أطفال ـ وهذا مثال نافع للحقيقـــة القائلة بأن الأخلاق الانسانية يمكن أن تتغير حتى فى مثل هـــذا الأمر الهام ، لأن المثل الأعلى فى اليـــابان الحديثة كان انجـــاب اطفال كثيرين بقدر الامكان ما دام هذا قد صار فى صالح البلاد •

انه نتيجة لتحديد النسل وقتل الأطفال .. ظل عدد سكان اليابان بين ١٦٥٠ - ١٨٥٠ ثابتا عند ٢٥ مليون نسمة .. وفي عام ١٨٦٨ تغير كل شيء .. فقد توقف تحديد النسل .. وصار استخدام الصابون ، والتطعيم ، والعناية بالحوامل وفقـا لقواعد الصحة الحديثة والعلوم الطبية أمرا عاديا في حياة اليابانيين .. وصارت المصانع تجتذب العمال الذين لا يستطيعون أن يجدوا عملا في الأرض .. وكانت النتيجة أن ارتفع عدد السكان وارتفع سريعا .. فتضاعف عام ١٩١٠ ، وبلغ ٦٥ مليونا عام ١٩٣٠ و٧٥ مليونا عام ١٩٤٥ و٨٥ مليونا عام ١٩٥٢ .. ولم تكن هذه الزيادة الهائلة في عدد السكان هي وحدها بل ربمـا لم تكن هي أهم العوامل في إتخاذ سياسة عدوانية • ولكن العامل الرئيسي كان احتياج الصناعة اليابانية للمواد الأولية ، الوقود ، الحديد .. الفحم والبترول .. ومع ذلك يمكن القول ان التوسع جاء ضروريا كنتيجة لازدياد عدد السكان • أما أجور العمال فظلت منخفضة اذ كان هناك عشرة عمال يحلون محل كل عامل ينقص .. وكانت بنات الفلاحين تبـــاع بالآلاف للمصانع التي تشغل جيشا حقيقيا من النســـاء .. أما الفتيات اللاتي لا يتحملن ظروف العمل في المصانع - وهي ظروف سيئة - فانهن يتحولن الى الدعارة أو يقعن نهبا للسل ، فيعدن الى بيوتهن ليلقين حتفهن •

كان بعض أفراد الطبقات الحاكمة في اليابان - مثلما في غيرها من الدول - يعطفون على العمال • ففي عام ١٩٠٣ اعتنق توجـــو هيكو كاجاوا (ولد سنة ١٨٠٨ وصار فيما بعد وزيرا للشـــئون الاجتماعية) الدين المسيحي بعد ما صار لا يحتمل الظروف القاسية التي يعيش فيها عامة الشعب .. وسيطر عليه حينذاك اعتقاد ، بأن كل ما في الغرب أفضل حالا ، ظروف معيشة العمال والعقيدة الدينية .. واذ أيده سوتو هيكو ماژوراكي صـــنع الشيء الكثير لتحسين أحوال الطبقة العاملة في المدن حيث كانت الظروف أسوأ

ما يمكن ، وخاصة فى شينهاوا أشد أحياء ميناء كوبى بؤسـا .
كذلك عملا معا على مساعدة الفلاحين الفقراء · وقد يكون صحيحا أن حل المشكلات الاجتماعية من هذا النوع لايمكن أن يتم نتيجة للنوايا الطيبة لدى الطبقة العليا ، فانه يبدو أن هذه الطبقة فى مجموعها لا تقدم تنازلات أساسية الا حين تضطر الى ذلك ·· الا أنه لايخفى أن هذين المصلحين قد ساعدا بقدر كبير على أن تصـبح الحركة النقابية شيئا هاما بالنسبة للطبقة العاملة اليابانية ·

أما المدى الذى تأثرت فيه اليـابان بالـدول الاجنبية فيتضح من الحقيقة الواقعة وهى أنه فيما بين سنة ١٩٠٠ ـ ١٩١٤ كانت الولايات المتحدة هى التى ساهمت ـ من غير قصـد ـ فى ادخال أساليب المدنية الى اليابان · ويمكن أن نفهم ذلك اذا نظرنا الى الخريطة ، خاصة اذا ما استعدنا تاريخ الولايات المتحـدة فى هذه السنوات ·· ففى منطقة الباسفيكى التى يمكن وصفهـا الآن دون مغالاة بأنها منطقة أمريكية مقفولة ·· كان تدخل الاوروبيين أقل منه فى أى مكان آخر · وفيما بعد اتجه الأمريكيون الى الصين وخلقوا حالة من التوتر بين الاستعمار البريطانى والاسـتعمار الامريكى الذى لم يختف بعد حتى الآن · واذ كانت الصـين أولى مناطق الاحتكاك بين الدولتين الغـربيتين الكبيرتين ، فان أمريكا الجنوبية كانت هى المنطقة الثانية بينما بؤر الاحتـكاك فى الوقت الراهن تتركز فى الشرق الأدنى والشرق الاوسط وافريقيا ·

وثمة ما يبرر استخدام تعبير « الامبريالية الأمريكية » ، فقد بدأ الأمريكيون يتوسعون أيضا فيما وراء البحـار عام ١٩٠٠ واذا لم نستطع أن نسمى فتح اليابان استعمارا ـ لأن الأمر كان يتعلق آخر الأمر بمجرد مركزين من مراكز التموين بالفحم للخط البحرى الجديد بين شنغهاى الى كاليفورنيا ـ فان ملامح الاستعمار اتخذت شكلها الواضح عام ١٨٩٨ حين أعقب تحرر كوبا من نير اسبانيا وضعها تحت السيطرة الاقتصادية للولايات المتحدة ··

غير أن فرض الحماية على كوبا لم يكن هو النهاية • فانه كما يقال « الظروف تصنع اللص » •

فان الفرص المثلى تفتح عين الدولة للتوسع • وقد حصلت الولايات المتحدة نتيجة للحرب الأمريكية الاسبانية على هاواى وجوام فى الباسفيكى والفيليبين التى أدرك سكانها خلال حرب عصابات دموية أنهم أصبحوا أيضا يعيشون فى مستعمرة •• وفى عام ١٩٠٠ لم تكن الولايات المتحدة أحدث دولة صناعية فى العالم فحسب •• بل أصبحت أيضا أقوى دولة فى الباسفيك ، ويمكن أن نفهم بسهولة أن هذا كان يعنى بالنسبة لليابان أن تتوسع وتسير فى طريق التطور بسرعة كبيرة ، كان نذيرا وبشيرا فى وقت واحد •

ولكن التغيير لم يلحق السياسات العليا فحسب ، بل شمل الأشياء الصغيرة كذلك وبعض هذه الأشياء له أهمية تاريخية •• ففى عام ١٩٠٥ ـ على سبيل المثال ـ ذهب الى الولايات المتحدة فريق البيسبول التابع لجامعة ويزيدا التى أسسها كونت أكوما • وكانت الرياضة فى ذلك الوقت تزداد أهمية •• وصار الانتصار والهزيمة فى الرياضة أمرا يتعلق بالكرامة والشرف الوطنى •• وفى أميركا انتقل الفريق اليابانى من هزيمة الى هزيمة • ومنذ تلك اللحظة أصبحت الرياضة فى اليابان موضع اهتمام قومى •• وأدخلت السباحة اجباريا فى المدارس • وأصبحت رياضة الانزلاق على الأرض والجليد جزءا من التدريبات العسكرية تمارس فى اليابان الآسيوية كما تمارس فى ألمانيا الاوروبية •

ثم وقعت سنة ١٩٠٥ امور أخرى طفيفة نسبيا جرحت كبرياء اليابانيين ومن ثم أحدثت تأثيرا تاريخيا •• فقد منع الأطفال اليابانيون المهاجرون فى سان فرنسيسكو من الجلوس مع الاطفال الأمريكيين البيض فى نفس الفصول المدرسية وكانت تلك أول خطوة فى عملية التشريع للتفرقة العنصرية فى أمريكا ، ومع أن

هذا الحادث قد أعقبه توقيع اتفاق جنتلمان فى طوكيو عام ١٩٠٨، وبمقتضاه تحد اليابان بمطلق حريتها عدد المهاجرين الى أميركا ؛ فان ذلك لم يكن كافيا ، فقد صدر فى ولاية كاليفورنيا عام ١٩١٣، قانون يمنع اليابانيين من امتلاك الأراضى ، وكان هذا الاجراء الى جانب غيره من الاجراءات المماثلة يعنى إثارة الضيق وجرح الكرامة عند عشرة آلاف يابانى يعيشون حينذاك فى كاليفورنيـــا وكانوا كفلاحين وبستانيين قد استصلحوا مســـاحات كبيرة من الأرض التى لا يملكها أحد ٠٠ وليس من العسير تخيل مدى السخط الذى عم اليابان ٠ ونحن نعرف ان حرب عام ١٩٤٠ كانت ردا عـــلى هذا التحدى ٠٠ وكان ذلك ظلا ينبىء مقدما بالحرب العالمية الثانية قبل أن تبدأ الحرب العالمية الاولى ٠

٣

الامبراطورية الصينية

كان رد التحدى الأجنبى فى الصين مختلفا ، فهنـا نجد طابعين قوميين متميزين كان لهما فى كل من اليـابان وتركيـا اما مغزى ضئيل جدا أو لم يكن لهما شيء من ذلك على الاطلاق .. الاول هو شعور الصينيين بالتفوق على غيرهم . فالصـين هى أرض أقـدم الثقافات التى مازالت آثارها قائمـة الى اليـوم ، وهى التى ظلت طوال خمسين قرنا أهم دولة فى شرق آسيا . وأظهر النماذج لهذا الشعور هو القصة التى تروى عن أول سفينة بخارية ظهرت فى ليانجتسى عام ١٨٧٠ . فان الصينيين حينما شاهدوا فى مياههم هذا النتاج الغريب للبرابرة الغربيين لم يتأثروا به على الاطلاق ، وقالوا انهم جربوا شيئا مشابها قبل ذلك بألفى سنة ، ولم تكن هذه السفينة فى رأيهم سوى نتيجة للرغبة فى التجديد.. والثانى ان الصين ردت بطريقة مختلفة نظرا لأن حدودها كانت تكاد تخلو من أى دفاع فهنا لم يكن موجودا أى تراث عدوانى ، وربما كان ذلك مرجعه شعور الاستعلاء

وفى التاريخ تتشابك الاحداث كلها بعضها مع بعض وهذا هو السبب فى أن دراسة التاريخ صعبة للغاية ولكنها جذابة فى الوقت نفسه بحيث اذا بدىء فيها لايمكن تركها قط

وطبيعى انه ما كان يمكن الا يؤثر مجرى الاحداث فى اليـابان تاثيرا كبيرا فى الصين . ولقد واجه الصينيون تحدى الغرب فى الأصل بأساليب المقاومة نفسها التى استخدمها اليابانيون ، ولكن مقاومة الصين فى الداخل كانت اشد قوة وان تكن فى الخارج أقل

فاعلية ، ولهذا فاق ما تعرضت له من أخطار ما تعرضت له اليابان الصغيرة ، بسبب العلو فى تفتها بتقافنها الخالدة والفريدة ومساحتها ، ومئات الملايين من سكانها . فقد كانت الصين قطعا شيئا هائلا قبل أن يبدأ الأوروبيون فى تحطيم امبراطوريتها المتداعية. ألم تكن تمتد فى منتصف القرن التاسع عشر من سيجون الى شمال آمور ومن الشاطىء الشرقى لفرموزا الى قمم البامير الثلجية ؟ ومن ذا كان له من الرعايا مثل حاكم مملكة السماء ؟.. فى عام ۱۹۰۰ كان عدد سكان الأقاليم الثانية عشرة الأصلية فى الصين ٤٠٠ مليون نسمة ، ويسكن بقية أجزاء الامبراطورية ٥٠ مليون نسمة . وليس ميسورا المزيد من الارقام الدقيقه لانه على الرغم من الاحصاءات الكثيرة التى أجريت فى الصين ، فان هذه الاحصاءات كانت تجرى دائما مقترنة بمسائل الخدمة العسكرية أو الضرائب ولهذا فانه لا يمكن الاعتماد عليها .

ثم لم تكن الصين فى عزلة تامة مثلما كانت اليابان ، فقد سمعنا عن تجارتها الكبيرة مع روسيا فى القرن الثامن عشر على الرغم من أن غابات سيبيريا الشاسعة كانت تشكل عقبة أكبر من سور الصين العظيم . ولقد كانت هذه التجارة تجلب للصين كميات من الفراء والملح كما أن البريطانيين والهولنديين كانوا يستصدرون الشاى والفخار الصينى وأشياء أخرى كثيرة من كانتون .. وفى مطلع ١٥٥٧ أقام البرتغاليون مستعمرة لهم فى مكاو استمرت تحت سيطرتهم حتى اليوم . وفى عام ١٧٨٤ ظهرت فى الأفق أول سفينة أمريكية ، ولكن حتى ذلك الوقت لم يكن الصينيون يقيمون وزنا للاجنبى أو للبربرى على حد قولهم ، ولم يكن للاجنبى أن يستخدم صينيين فى بيته ، وكان حينما تنتهى مهمته التجارية يعود الى بلده أو الى الميناء البرتغالى الحر فى ماكاو . وكان هذا الوضع يختلف اختلافا بينا عما وجد فيما بعد حينما صار من الممكن أن يقرأ الانسان فى حدائق الاحياء الاجنبية لافتة تقول « ممنوع

دخول الكلاب والصينيين » • ولقد ساعد على انتشار النفوذ العربى بصفة شبه قانونية ، المبشرون من الرومان الكاثوليك ، وبخاصة من البروتستنت • وسمع اطفال الصينيين فى مدارس الارساليات عن الدول الاجنبية ، وتعلموا التاريخ والجغرافية • ولقنوا الشيء الكثير عن الرخاء الاقتصادى الذى جلبته الثـورة الصـــناعية الى أوروبا وأمريكا ، وعن مركز الفلاح والمرأة فى البلاد الأخرى ، وعن منجزات الغرب فى ميدان الطب والصحة ، وفوق ذلك كله عما حققه الغرب فى القرن التاسع عشر من تقدم واسع فى الفنـــون التطبيقية وعلم الحياة والكيمياء والطب وهو ما لم تكن تعرفه الصين حينذاك • ومثل ذلك فى الأهمية أو ربما أهم منه العلاقة التى أوجدها بين الصين والغرب ، استيراد المنسوجات القطنية الرخيصة ، وهى تلك العلاقة التى جعلت الفلاح الصينى على غير وعى منه وعلى غير رغبة منه قطعا عبدا للغرب •

وبغض النظر عن مدى الربح من التجارة ، حتى وان كانت تجرى فى ظل قيود متعددة ، فان الغرب لم يكن راضيا •• ففى عام ١٨٤٢ اخترق البريطانيون سور الصين العظيم ومن ذلك الوقت ظل هذا السور يتحطم باستمرار حتى انتهى •

لقد جاء الغرب الى اليابان وهو يكاد يتوسل، ولكنه دخل الصين غازيا • لقد كانت أسباب حرب الأفيون «١٨٣٩ - ١٨٤٢» - طالب الانذار البريطانى بحق توريد الأفيون الهندى - شاذة وغير أخلاقية الى أقصى درجة ، كان الاستيلاء على هونج كونج سرقة مكشوفة ، كذلك الحال بالنسبة لمعاهدة نانكين « ١٨٤٢ » التى أرغمت الصين بمقتضاها على فتح عدد من موانيها للتجارة الأوروبية •

وعندئذ بدأت مواجهة التحدى الغربى تتخذ أشكالا أخرى •• ففى عام ١٨٥٠ وقعت ثورة التايبنج المشهورة ، وهى ثورة قام بها الفلاحون وكانت موجهة ضد ملاك الأرض وضد أسرة المانشو مثلما

هى موجهة ضد الاعتداءات الغربية • وكان هيونج سيوشوان هو الزعيم الروحى للثورة الذى أدخل بعض التعاليم المسيحية ضمن مبادئه • وكان ذلك نموذجا طريفا للربط بين الدين والقومية الذى عالجناه فى مقدمة هذا الكتاب •

وقد ترتب على محاولة الامبراطور سحق الحركة الاصلاحية انقلابها ضده شخصيا وكان هذا تحولا سهلا لأن الصين الأصلية كانت تنظر دائما الى أسرة الامبراطور (١٦٤٤ - ١٩١٢) منذ مجيئها من شمال منشوريا على أنها أسرة أجنبية • ومع ذلك فقد كان مقدرا ألا يختلف الوضع حتى لو كانت الاسرة الحاكمه تنتمى الى الصين الأصلية • فتاريخ الصين يوضح انه حينما كان يشتد الضغط على الشعب كانت تحدث دائما ثورات ضد الاسر الحاكمة ويصبح زعماء الثورة حكاما ، ويستمر حكمهم حتى يصل ظلمهم بدوره الى درجة لا تحتمل • عندئذ تصبح الأسرة الحاكمة الجديدة - قديمة - وتحرم من نعمة السماء •• وتعود الدورة نفسها من جديد • ولقد ثارت البلاد كلها من نانكين الى كانتون بزعامة يانج شيو شنج • واتخذ الثوار نانكين عاصمة لهم ، غير أن جيوشهم لم تستطع أن تنظم الدفاع بالقدر الواجب أو أن تقيم حكومة نظامية ولم يعبأ السكان بالقدر الكافى من الحماس للعمل ، وعلى الرغم من انتشار الثورة فى نصف البلاد فانها ظلت تصطبغ بالصبغة المحلية ومع ذلك لم تستسلم الثورة الا عام ١٨٤٦ وكان الانجليز والامريكيون قد فعلوا الشيء الكثير لتحقيق هذا الاستسلام وأسوأ من ذلك أن الدول البيضاء تأكدت فى سنة ١٨٥٠ من خراب الامبراطورية الصينية ، ومن ثم صار فى الامكان تقديم انذارات جديدة اليها • ووقعت معاهدةتيينتسين « يونية ١٨٥٨ » ، وجلبت معها قدرا جديدا من الاذلال • ودخلت القوات البريطانيةوالفرنسية بكين بعد توقيعها بعامين ، وفى عام ١٨٦١ أرغمت الصين علىانشاء «التسونج لى يامين» •• وهى هيئة مركزية لتنظيم العلاقات

الخارجية • ومن ذلك الوقت فصاعدا صار عدد المعاهدات التى تنظم استخدام الموانى والوكالات التجارية الاجنبية فى ازدياد مستمر ، ووصل عدد هذه الوكالات فى سنة ١٩٠٠ الى حوالى ألف وكالة يعمل بها حوالى ٢٠ ألف موظف • جاءت البعثات التبشيرية البروتستنتية والرومانية الكاثوليكية واحدة بعد الاخرى ، وتدفقت القروض الأجنبية •

ان التقدم الفنى ـ الذى كاد أن يتفجر فى اليابان ـ لم يتم فى الصين الا بطيئا فقد مد أول خط حديدى ضد مقاومة الشعب ذلك أن الفلاحين قاموا عام ١٨٧٦ بنزع قضبان الخط الحديدى الذى امتدمسافة عشرة أميال بين شنغهاى ووسنج على الشاطىء وألقوها فى البحر ، لانهم اعتقدوا أن انشاء هذا الخط الذى كان العمل قد بدأ فيه سوف يؤدى الى نبش قبور أجدادهم ، ولم يبدأ سير أول قطار فى الصين حتى عام ١٨٨٨ بين تيينتسين وتانجشان « ٧٥ ميلا » • ومدت أسلاك البرق تحت الماء « ١٨٧١ » بين فلاديفستوك وسنغافوره عن طريق شنغهاى وهونج كونج • وأقيمت الفنارات والموانى الحديثة على طول الشاطىء • وقد أقام البريطانيون أغلبها وبذلك أخذت الصين ـ ببطء فى البداية ـ تنهض من سباتها •• وبدأت كذلك فترة جديدة خلقت احتمالات جديدة لحياة أفضل للملايين البؤساء من سكان الصين حتى وان كانت قد حطمت الشىء الكثير مما كان ينبغى المحافظة عليه •

وتعد الحرب الصينية ـ اليابانية « ١٨٩٤ ـ ١٨٩٥ » أشد صدمة حطمت الصين القديمة ، وهيأت لقيام الصين الجديدة فقد دار القتال أساسا فى كوريا وجنوب منشوريا ، وكانت نتائج هذا القتال التى تضمن بعضها معاهدة شيمونو سيكى مشئومة، اذ أعلن استقلال كوريا التى كانت جزءا من الصين ، وكان هذا معناه اتاحة فرص الاحتلال الأجنبى لها سواء من جانب اليابان أو روسيا وكلا الاحتمالين كان خطيرا ، وأصبحت جزيرة تايوان الصينية ـ التى

تعرف عادة باسمها البرتغالى فرموزا ، اقليما يابانيا • ولم يكن ذلك يقل خطورة عن ضياع كوريا • ولقد اتضحت أهميتها الاستراتيجية ـ ليس أثناء فترة احتلال اليابان التى استمرت حتى عام ١٩٤٥ فحسب ـ ولكن أهم من ذلك حينما أصبحت فيما بعد تحت حكم شيانج كاى شيك قاعدة بحرية أمريكية ، وبعد حصول اليابان على نصيبها من الغنيمة فى شيمونوسيكى • تقدمت الدول الكبرى الى مزيد من عمليات الاغتصاب •• وأخذت كل ما استطاعت الاستيلاء عليه

استأجرت ألمانيا عام ١٨٩٨ ميناء كيوشو والمنطقة المحيطة به على البحر الأصفر ، وتسلمت روسيا ـ التى كانت قد احتلت عام ١٨٦٠ الأقاليم الملاحية بين فلاديفستوك الحالية وامور ـ ميناء بورت أرثر ، وحصلت على حق ربط هذه القاعدة البحرية بالخط الحديدى عبر سيبيريا ، بخط جديد يمتد عبر منشوريا • واستأجرت فرنسا كوانجشو « على بحر الصين الجنوبى فى اقليم كوانجتونج » ، وبهذا استكملت احتلالها للهند الصينية التى أخذتها من الصين عام ١٨٨٥ ، وأخذ البريطانيون كولون المواجهة لهونج كونج ودويهايوى على خليج شانتنج المطل على بورتآرثر ، وكيوشو ، وكوريا • وكان ذلك كله مقابل المساعدة التى قدمتها الدول الغربية لمنع اليابان من سلب الصين كلها • وقد حصلت الصين على قرض قدره ٤٠٠ مليون فرنك بفائدة ٤٪ من فرنسا ، بضمان الجمارك وعندئذ بدأت منافسة شديدة بين الدول الأجنبية لاستغلال المناجم واقامة الخطوط الحديدية ، وكل منها أكثر ربحا من الآخر بالنسبة للأجنبى ••

وكانت المحاولة الاصلاحية التى نادى بها كانج يو ـ وى المتطرف « ١٨٥٨ ـ ١٩٢٧ » وطلبة كانتون الذين تعلموا فى الخارج «١٨٩٨» رد فعل لكل هذا الاذلال • وقد شرحوا خطتهم فى كتيب نشره شانج تسى ـ تونج عام ١٨٩٨ ، وبيعت منه أكثر من مليون

لسـخة . وطالب الاصلاحيون بانشاء جامعة فى بكين الى جانب مطالبتهم الدول الغربية بمـزيد من الخطوط الحديدية والاسلحة للجيش الامبراطورى واسطول حديث .

ولقد كان المثقف الصينى يتعلم جيدا ويملك معرفة عظيمة ولكن هذه المعرفة كانت مقتصرة على الأدب والاخلاق بينما لم تكن العلوم ـ خاصة العلوم الطبيعية ـ تنال سوى اهتمام ضئيل ، وقد كان يمكن أن تجدد الصين دون اراقة مزيد من الدماء لولا أن الامبراطورة العجوز تسو ـ سى الوصية على العرش خشيت أن يسمح الامبراطور الضعيف بتحقيق الاصلاحات التى وافق عليها من قبل ، فانها اذا تحققت ضاع مركزها الخاص فى الامبراطورية. وهنا نرى مرةأخرى كيف تؤثرالاعتبارات الشخصية القليلة الأهمية فى مجرى التاريخ ، ليس بمعنى أن فردا يستطيع حقا تغيير مجرى التاريخ فحسب ، بل الى الحد الذى يستطيع فيه فرد ما أن يساعد التطورات التاريخية أو يعرقلها. لقد القت تسو-سى القبض على الامبراطور، وأصدرت مرسوما أعلنت فيه انه غيرشرعى وانه ضعيف العقل، ومن ثم ألغيت جميع الاجراءات الاصلاحية ولم يبق منها سوى جامعة بكين . ونتيجة لذلك ظل كل شىء كما هو ، أو بالأحرى انحدر الى أسوأ . فقد تدهور الصينيون الى أقصى دركات البؤس .

ومن جديد أساء القصر الرجعى استغلال خوف الصينيين من الأجانب لمصلحته الخاصة ، وقد تبين ذلك فى ثورة البوكسر فى عام ١٩٠٠ وهى محاولة للثورة قامت بها جمعية البوكسر السرية التى تشكلت قبـل ذلك بوقت قصير لمقاومة النفـوذ الغربى والامتيازات الأجنبية .. وحينما حاصر الثوار السفارات الأجنبية فى بكين وقتلوا السفير الألمانى ، تقبلت أوروبا شاكرة الفرصـة السانحة للتدخل العسكرى فتشكل جيش دولى لسحق الثورة ـ وقد سحقت باراقة الكثير من الدماء بقيادة الجنرال الألمانى فون فالديرسى الذى عين قائدا اعلى للجيش العالمى .. وبعـد أن تم

توقيع بروتوكول البوكسر سنة ١٩٠١ بدات أوروبا تطلب المزيد من المطالب المذلة ومن الامتيازات الأجنبية •

وقبل حكام الصين كل ما يطلب منهم، لأنهم تبينوا عندئذ انهم لم يعودوا يستطيعون الاعتماد على الشعب الصينى • وانما يعتمدون فى بقائهم بالحكم على حراب الأجانب لاغير •

واستمر تدهور الصين • ففى عام ١٩٠٤ ذهبت حملة بريطانية الى التبت التى كانت قد أعلنت مستقلة استقلالا ذاتيا وان كانت السيادة الصينية عليها ظلت باقية بالاسم على الأقل ، ونذكر بالمناسبة أن الصينيين وصلوا الى التبت سنة ٦٤٢ق٠م ومنذ بداية القرن الثامن عشر كانوا هم سادتها •• وحين قامت حكومة ماوتسى تونج سنة ١٩٥٠ مرة أخرى بادماج التبت فى الصين كاقليم متمتع بالحكم الذاتى ، فانما كانت تتبع تقليدا متوارثا منذ قرون •

تحملت الصين عام ١٩٠٥ جزئيا أولى النتائج السيئة للحرب بين روسيا واليابان ..فقد حصلت اليابان على الامتيازات الروسية فى جنوب منشوريا وبورت ارثر • ولم يكن الامريكيون بعيدين عن المسرح وان كانت المسألة بالنسبة لهم ليست هى أرض الصين بل أسواقها ولم يكن تعاطفهم مع الصينيين أكبر من ذلك قطعا. ففى عام ١٩١٤ فرضت الولايات المتحدة قيودا مشددة على قوانين الهجرة كى تحد من هجرة الصينيين الى الولايات المتحدة •

وحتى اذا كان يوم الحرية محتما حلوله فليس من المستبعد على الفكر انه كان يمكن أن يستمر ذل الصين وقتا أطول لو لم يولد فى عام ١٨٦٦ رجل أدرك بوضوح أكثر من الاخرين بشاعة الوضع الذى كان شعبه فيه . وتبين الحقيقة الواقعة وهى أن هناك اشياء أهم من مجرد المقاومة السياسية للغرب ، وفهم أن الثورة الاجتماعية وحدها هى التى تستطيع تفجير طاقات الشعب، وتمكينه من تحويل الأساليب الغربية بطرقه الخاصة لصالح بلاده •

كان هذا الرجل هو صن يات ـ صن (١٨٦٦ ـ ١٩٢٥) الذى ارتبط اسمه بالثورة الصينية ارتباطا وثيقا ، مثلما ارتبط اسم لينين بالثورة الروسية .. وكمال أتاتورك بالثورة التركية .. وغاندى بالثورة الهندية ، وسوكارنو بالثورة الاندونيسية . الرجل الذى يتملكه ضجر الثورى ولكنه يستطيع الصبر أيضا . ولد أثناء فظائع ثورة التايبنج وكان أبوه فلاحا . درس الطب فى هونولولو وهونج كونج ، وتكونت انطباعاته السياسية الأولى حين احتل الفرنسيون بقية الهند الصينية ، وهاجموا ميناء فوشو الصينى ، وحرقوا أسطول الصين التجارى كله .. وكان بحكم كونه صينيا جنوبيا يضمر العداء لحكومة بكين وحكم أسرة مانشو ، وسيطر عليه اعتقاد بأن فساد الاسرة الحاكمة فى الشمال هو العقبة الرئيسية أمام تحضر الصين .. وعلى هذا قام عام ١٨٩٤ بتكوين جمعية تسن تسونج ـ هوى السرية ، على نمط جمعيات عديدة مماثلة من أجل تجديد الصين . وفشلت الهبة الثورية الأولى ضد الحكومة فى كانتون عام ١٨٩٥ ، ووجب على صن أن يهرب الى الخارج ، وعندئذ قام بتنظيم الصينيين فى هونولولو وسان فرانسيسكو ، ومن ثم اتصل بالكثيرين من مواطنيه الأثرياء . أما انه لم يسلم حتى وهو فى الخارج من انتقام حكومته فقد تبين سنة ١٨٩٦ حين قبضت عليه المفوضية الصينية فى لندن وحبسته بداخلها اثنى عشر يوما . وكان واضحا أن القصد هو اعادته الى الصين وشنقه هناك ولكن المفوضية لم تكن أكثر نشاطا من الحكومة فتمكن من الفرار بمساعدة بعض أصدقائه من البريطانيين ، وعاد الى الصين وخاطر باشعال ثورة جديدة فى فترة ثورة البوكسر .. بيد أنه فشل للمرة الثانية واضطر من جديد الى الهرب ولكن احتمالات النجاح هذه المرة بدت أكثر مما كانت . ففى المرة الأولى كان ثائرا غير معروف ولكنه أصبح عندئذ ينظر اليه من الكثيرين

باعتباره زعيما شعبيا موقرا يحصل على المال من كل مكان ليقوم بمحاولة أخيرة لتجربة القوة ضد الحكومة البغيضة • وفى عام ١٩٠٥ نجده فى اليابان بين آلاف الطلبة الصينيين الذين التجأوا هناك وكون منظمة تونج ـ منج ـ هوى الثورية الجديدة التى انتشرت خلاياها فى كل مكان بما فى ذلك بروكسل ، باريس ، وبرلين • وكانت هذه المنظمة هى الأصل المباشر للكومنتانج المشهور والسىء السمعة فى وقت واحد •

وفى عام ١٩٠٦ ـ ١٩٠٧ قامت ثورة جديدة ـ وقد قلنا من قبل أن الثورى يحتاج التزود بالصبر ـ وسحقها البوليس ولكن الامور كانت قد تغيرت حينذاك •• فان جيشا قوامه ٦٠ ألف رجل كان يقف فى كوانج تونج على أهبة الثورة • وقد أصدر صن يات ـ سن برنامجا موسعا لمناهضة أسرة المانشو ـ وربما كان متاثرا فيه بثورة روسيا ١٩٠٥ ـ اذ نادى فيه بالقومية، والديموقراطية ، والاشتراكية • وفى عام ١٩١١ حدثت أزمة سببها مصادرة الحكومة للسكك الحديدية المملوكة للصينيين لاستخدامها كضمان للقروض الأجنبية • وفى السنوات السابقة لذلك مباشرة كانت جمعية الكومنتانج قد وجدت مؤيدين لها بين الراسمالية الصينية فى الداخل وفى الخارج • ومن ثم فقد كانت المصادرة هى القشة الأخيرة • وفى ١٠ أكتوبر اشتعلت الثورة فى هانكاو ولم تلبث الصين أن تحولت فى نهاية العام الى جمهورية •

غير أن الشئون الانسانية شىء معقد . لقد تلقت الصين القديمة صدمة خطيرة ولكنها لم تقض عليها تماما • فقد انتخب صن رئيسا للجمهورية، ولكنه بعد ستة أسابيع وحفظا للوحدة الوطنية انسحب لحساب يوان شى كاى وهو جندى يثق به القصر وكان قد لعب دوراً مريبا فى أحداث سنة ١٨٩٨ • ولو لم يتبين فيما بعد أن الجناح اليمينى فى حزبه هو الذى أرغمه على الاستقالة لكان يمكن توجيه اللوم الى صن لارتكابه هذا الخطأ الكبير بموافقته على

الحلّ المشكوك فى أمره باقامة جمهورية يرضى عنها الامبراطور •
وكان عليه أن يتذرع بالصبر مرة أخرى فان السياسى العظيم حقا
هو من يجمع الشجاعة الكبيرة والبصيرة العميقة ـ وهاتان
صفتان اجتمعتا فيه معا ـ ولكن حتى مع ذلك فانه لا يستطيع
أن يفعل شيئا أكثر مما تسمح به الظروف .. وبهذا المعنى من
الحق القول أن السياسة هى فن الممكن حتى اذا كان تحقيق
الممكن يقتضى محاولة تحقيق المستحيل •

فى هذه الظروف القلقة ـ بينما الصين القديمة قد تحطمت ـ
والصين الجديدة تدخل دور التكوين دخلت مملكة السماء الحرب
العالمية الاولى التى يمكن اعتبارها البداية الحقيقية للقرن العشرين •

٤

الهند وباكستان

كانت الهند وباكستان تؤلفان فى عهد الحكم البريطانى وحدة سياسية واحدة يقال لها فى بريطانيا الهند وفى دول أخرى الهند البريطانية أو الهند الدنيا . ولكى نتجنب الارتباك سوف نستخدم الاسم الاخير لوصف شبه القارة حتى انتهاء الحكم البريطانى .. ولقد كان هذا الاسم فى الأصل جغرافيا أكثر منه سياسيا ..

ففى سنة ١٦٠٠ تكونت فى الهند الشركة البريطانية للهند الشرقية وفى عام ١٦٠٢ تكونت فى امستردام شركة مماثلة تحمل اسم الشركة المتحدة للهند الشرقية .. والاثنتان تحملان عبارة « الهند الشرقية » فى اسميهما لان الاوروبيين اطلقوا على جنوب شرقى آسيا اسم الهند الشرقية تمييزا لها عن جزر أمريكا الوسطى التى اكتشفها كولمبوس عام ١٤٩٢ وأطلق عليها اسم « جزر الهند الغربية » .

ولقد كان نشاط هاتين الشركتين يعنى فى الواقع التدخل السياسى والفتح بقصد تخريب التجارة الداخلية القائمة والمزدهرة حينذاك .. ولم تكن الجهود التى بذلت للتوسع خطيرة الى هذا الحد .. فلو أن أوربا وجدت فى متناولها حينذاك الذهب مثلما وجدت المنتجات التى تحتاجها آسيا ، اذن لبقيت التجارة بريئة كما كانت ولم يكن هذا هو الحال واخيرا صارت سلطةالشركتين السياسية فى الهند الدنيا وأندونيسيا متعاظمة وقهارة الى حد كفل لكل منهما مساعدة الدولة التى تتبعها وقد تسلمت الدولة الزمام منهما فى النهاية وكانت جاوه فى أندونيسيا هى نقطة الانطلاق للفتح

السياسي ، بينما كانت البنغال تمثل هذه النقطة فى الهند ، وكما أصبحت باتافيا فى جاوه عاصمة السيطرة السياسية الأوروبية ، فان كلكتا صارت فى البنغال هى العاصمة . ولم تحل نيودلهى مكان كلكتا حتى بداية القرن العشرين .. غير أن البريطانيين لم يكونوا هم وحدهم الغزاة البيض فى الهنـــد .. فقد كان هنـــاك أيضـــا البرتغاليون وكذلك الفرنسيون . ظهر البرتغاليون فى وقت مبكر عام ١٤٩٨ عندما نزل فاسكو دا جـاما على شـاطىء مالابار بعد دورانه حول رأس الرجاء الصالح وظل البرتغاليـون يتاجـرون ويدبرون المكائد هناك طوال قرن قبل وصـول البريطانيين ، أما الفرنسيون فكانوا منافســين أشد خطرا مما هم عليه الآن . فان جيلنا الحاضر لم يعرف الشيء الكثير عن فرنسا القوية حقا . لقد نزفت دماء فرنسا فى الحرب العالمية الأولى وكانت حربا شديدة التحدى الى درجة لم تمكنها من الرد الكامل .. ولكن فرنسا كانت منذ حوالى عام ١٦٤٠ حتى الفترة من ١٩٠٠ ــ ١٩١٤ أهم دولة فى أوروبا ولم يكن ذلك مرجعه مجرد القوة السياسية والعسكرية فان الافكار الحديثة كلها وردت من فرنسا ، وكان الأدب الفرنسى أغنى أنواع الأدب والفن الفرنسى من أثرى الفنون وكان البــلاط الفرنسى نموذجا لغيره ، مثلما كانت البرجوازية الفرنسية نموذجا لغيرها فى الدول الاخرى جميعا ، كانت باريس عاصمة العـــالم ، بينما لم تعد فرنسا الان تزيد عن أسطورة .

ولقد استطاعت بريطانيا اخراج فرنسا بسهولة من « الهند الدنيا » فى حرب السنوات السبع « ١٧٥٦ ــ ١٦٦٣ » . واقتصر حكم الفرنسيين من ذلك الوقت على بونديشيرى ، شاندرناجـور ، وبعض الجيوب الصغيرة المتفـرقة . اسـتمروا ــ وياللغـرابة ــ يسيطرون عليها لفترة تزيد عن فترة حـكم البريطانيين للهنـد البريطانية ، وقد استغرقت عمليات غـزو الولايات المستقلة فى الهند فترة امتدت من عام ١٧٨٢ الى ١٨١٧ وكانت أولى الولايات

التى سقطت هى مملكة المغـول العظمى التى كانت تحكمهـا أسرة اسلامية استطاعت فى القرن السـادس عشر والقرون التى أعقبتـه فتح الجزء الاكبر من الهند الدنيا ؛ وقد سمى هذا الغزو اقرار السلام البريطانى .

ولقد كان تسلم الحكومة البريطانية لشركة الهند الشرقية سنة ١٨٦٨ متأخرا بعض الشيء عن مثيله فى أندونيسيا ، فهناك اختفت الشركة الهولندية للهند الشرقية قبل انتهاء القرن الثامن عشر .. ولقد ظل الحكم البريطانى بالمعنى الخاص لهذه الكلمة ما يقـل عن قرن من الزمان .

ولقد دفع الحكومة البريطانية الى حل الشركة سببان .. أولهما طابعه مستمد من السياسة الخارجية ، فقد كانت بريطانيا تخشى طول القرن الثامن عشر من احتمال عودة فرنسا الى الهند ، وحين تبدد هذا الخوف بانهيار امبراطورية نابليون عام ١٨١٥ ، حـل مكانه من جديد الخوف من النفوذ الروسى . ويرتبط هذا الخوف من روسيا بالحرب الافغانية الثانية « الحرب الافغانية الاولى ١٨٣٩ ــ ١٨٤٢ ، والحرب الأفغانية الثانية ١٨٧٨ ــ ١٨٧٩ » . أما السبب الثانى فقد كان داخليا وهو العامل المبـاشر وراء اختفـاء الشركة وهذا السبب هو الثورة الكبرى ١٨٧٥ ــ ١٨٧٨ ، كان جيش الشركة يتألف أساسا من الجنود المسلمين وهؤلاء مثل الهندوس استولى عليهم الخوف من ارغامهم على اعتناق المسيحية ــ وها هنا مثل آخر للصلة بين القومية والدين ــ كان السبب المباشر للثورة هو ادخال البنادق من طراز « انفيلد » وكان الجنود الهنـــود يعتقدون أن رصاصاتها تشحم بدهن البقر والخنازير والمسلمون لا يأكلون لحم الخنزير ، كما أن الهندوس لا يأكلون لحم البقر ، وبدأت الثـورة فى ميروث فى ١٠ مـايو ١٨٧٥ ولم تلبث بعد وقت قصـــير أن انتشرت فى كافة أنحاء شمال الهند ووسطها . واحتل الثوار دلهى ، وذبحت الحامية البريطانية فى كاو نبور وكان ذلك عملا ســهلا

اذ أن أغلب الجنود البريطانيين كانوا قد أرسلوا الى القرم ، وكما هى العادة كان انتقام البريطانيين حين جاءتهم النجدات أشد فظاعة ولعل حصار لوكنو كان أهم الأحداث واعظمها شهرة وكان استرداد دلهى هو الحدث العسكرى الحاسم . وقد صمد الجنود الهنود فى بمباى مدة أطول من غيرهم ولم يكن عددهم يزيد عن ٤٥٠٠ رجل تقودهم فتاة عمرها عشرون عاما تدعى كاكشمى باى ، لا يزال اسمها يلقى الاحترام عند الهنود . وكان للثوار زعيم آخر قوى من أقدر زعمائهم يدعى تانتيا توبى وقد شنق فى ابريل ١٨٥٩ . وظل الحكم البريطانى من ذلك التاريخ راسخا لمدة تزيد عن خمسين عاما تعاونت معه خلالها الطبقات الاجتماعية العليا . وتنتمى هذه الثورة الكبرى الى المرحلة الاولى من صحوة آسيا، حيث كانت ثورة وحربا من أجل الاستقلال تولت قيادتها الزعامة الارستقراطية.

وفى عام ١٨٧٧ أصبحت الملكة فيكتوريا تحمل لقب امبراطورة الهند وأدت هذه الغطرسة الاوربية كلها الى نمو الوحدة فى صفوف الشعوب المستعمرة ، وفى عام ١٨٨٥ تكونت المنظمة التى قررت استقلال الهند فى نهاية الامر ، تلك هى المؤتمر الوطنى الهندى وهى التى يشار اليها عادة فى بساطة باسم «المؤتمر» وهى المنظمة التى جاء أعضاؤها فى البداية من الطبقة المتوسطة الناشئة ، والتى نالت عطف الحكومة وتأييدها . « وان الطبقة الحاكمة فى بريطانيا لتظهر براعة فى التعامل مع الحركات الاجتماعية الباحثة عن الاصلاح فى بريطانيا نفسها والسيطرة عليها ، وهذا هو السبب فى أن التطورات الاجتماعية فى بريطانيا كانت بطيئة بدرجة ملحوظة . ففى بريطانيا يمكن تغيير الشىء الكثير دون أن يبدو أن ثمة تغييرا يحدث بالفعل ويمكن أن يحتفظ بأشياء كثيرة بينما هى تتغير فعلا ولقد كان هذا هو الدرس الذى تعلمته الطبقة الحاكمة فى بريطانيا خلال حكمها الطويل للجزيرة البريطانية . ولربما يعتبر سير ونستون تشرشل آخر هذا الطراز من الحكام» ، ولقد كان أول زعماء

المؤتمر هم دادا بهاى ناوروجى « ١٨٢٥ ـ ١٩١٧ » الذى ألف كتاب « الفقر والحكم غير البريطانى فى الهند » والذى ظل عضوا فى البرلمان البريطانى لسنوات عديدة ، سير سورندرنات بانرجيا « ١٨٤٨ ـ ١٩٢٥ » ، وجو كال صديق غاندى وسلفه • ولقد ظهر فى وقت مبكر مصلح هو رام موهان روى « ١٧٧٢ ـ ١٨٣٣ » وكان سوامى دانادا سارازواتى مصلحا من نوع آخر (١٨٢٤ ـ ١٩٣٣) أسس عام ١٨٧٥ جمعية آرياساماج ، وهى واحدة من أهم حركات التجديد فى الهند فى تلك الفترة ، وكان أهم زعيم راديكالى عارض الجناح المعتدل فى الكونجرس بزعامة جوكال ، هو بال جانجا دارتيلاك « ١٨٦٥ ـ ١٩٢٠ » وهو حتى الآن أعظم سلف لغاندى كان تيلاك طالبا بالجامعة البريطانية فى بمباى وتشرب بالافكار الغربية الحديثة الا أنه لم يتردد فى تكوين هيئة لمنع ذبح البقر ـ الذى يقدسه الهنود ـ ومنع تحريم زواج الأطفال ، ولم يكن ذلك موافقة منه على زواجهم ولكن لأن هذا التحريم كان اجراء بريطانيا وكان يرغب بأى طريقة ضم أكبر عدد من الشعب الهندى الى حركته المناهضة للبريطانيين وقد تعمد بهذا ادخال الحركة الوطنية فى مرحلتها الثالثة • وقد تميزت حركته بطابع الرؤية العالمية ... حيث كانت المظاهرات التى يقودها ترفع صورا لمازينى وغاريبالدى أبطال القومية الايطالية • وكانت ايطاليا قد حصلت فى الفترة من ١٨٦٠ ـ ١٨٧٠ على حريتها من السيطرة الأجنبية الطويلة وبخاصة السيطرة النمسوية • وبصفة عامة كانت سياسة تيلاك اذا قوبلت بسياسة جوكال تعتبر نوعا من الاعتماد على النفس وليس الاستجداء ولقد قبض على تيلاك سنة ١٩٠٧ وألقى فى السجن وكانت تلك خطوة ساعدت كما هى العادة على تأجيج الحركة من أجل الحرية بدلا من اخمادها •

وفى حوالى عام ١٩٠٠ ساعد عدد من العوامل على انتشار هذه الحركة فلم يكن الجوع فقط وليس حتى الآن مجرد ظاهرة غير

عادية فى الهند فان ٣٥٪ من السكان كانوا حينذاك لايمتلكون أى جزء من الأرض وكان الفلاحون والمزارعون الصغار يمتلكون اقل من فدانين ونصف فدان فى المتوسط . وكان الملكيات الكبيرة من الأراضى والايجارات المرتفعة عقبة فى سبيل استخدام الوسائل الحديثة فى الزراعة • وأدت رداءة المحاصيل المتعاقبة بسبب تأخر هطول المطر الى الاضرار بالاقتصاد الزراعى • وقد راح ٢٦ مليون شخص ضحية للمجاعات الثمانى عشرة العظمى التى وقعت فى الفترة من ١٨٧٥ الى ١٩٠٠ وكان عجز المحاصيل فى سنوات « ١٨٩٦ ، ١٩٠٠ ، ١٩٠٢ » ـ وهو أكبر كثيرا من المعتاد ـ بمثابة كوارث حقيقية • والى جانب هذه الكوارث فان الطاعون الذى اجتاح الأرض عام ١٨٩٦ قد كشف الطابع الحقيقى للحكم البريطانى وهو انه كان موجها لاستنزاف الأرباح من الهند وليس افادة الهند وشعبها وفى ذلك الوقت أحدثت هزيمة الايطاليين فى الحبشة عام ١٨٩٦ ـ وان يكن لمدى أقل ـ الاثر نفسه الذى احدثته هزيمة روسيا أمام اليابان عام ١٩٠٥ ، اذ كانت النتيجة الواضحة لذلك هى أن البيض ليسوا معصومين من الهزيمة فبعد الحرب اليابانية الروسية بفترة قصيرة أثار مشروع كيرزن لتقسيم البنغال ، أول صدام كبير بين الحركة الوطنية والادارة البريطانية وكان لهذا المشروع فى ذاته ما يبرره فان اقليما يسكنه ٨٠ مليون نسمة يعتبر اقليما كبيرا جدا •• ولكن التقسيم كان يقوم على الأساس اللغوى ولهذا فانه يفرق بين الزعامات الفكرية والوطنية ومن الواضح أن أحد أهداف المشروع كان اقناع المسلمين بأن بريطانيا وجدت فيهم حليفا يوثق فيه أكثر من الهندوس •

وازدادت النيران تأججا ولاول مرة فرضت المقاطعة على الواردات من بريطانيا خاصة المنتجات القطنية ، وفى ١٩٠٧ ألقيت أول قنبلة وكان المتطرفون قد دعوا قبل ذلك بوقت قصير الى عقد مؤتمر فى سورات • ولم يكن مما يثير الدهشة أن يقبض على تيلاك لانه طالب

فى ذلك المؤتمر بالاستقلال الكامل وتنصل المعتدلون من المتطرفين ولكن كان على بريطانيا أن تقدم بعض التنازلات • وظهر ذلك فى قانون المجالس الهندية عام ١٩٠٩ ، وقد عرفت هذه التنازلات باسم اصلاحات مورلى ـ مينتو نسبة الى صاحب فكرتها جون مورلى زعيم حزب الأحـرار المعـروف الذى كان فى ذلك الوقت وزير الدولة لشئون الهنـــد ، ولورد مينتو نائب الملك فى الفترة من ١٩٠٥ ـ ١٩١٠ ولم تذهب الاصلاحات الى أبعد من ذلك، وقد تضمنت بداية تدريجية لتمثيل الهنود فى المجالس النيابية وفى الحـكمة الا أن الحركة الوطنية حققت أخيرا انتصارها فى البنغال ، وظلت المنطقة المتحدثة بالبنغالية وحدة واحدة وكونت الأقاليم غير البنغالية فى جنوب وغرب البنغال « بيهار واوريسا » اقليما منفصلا • وسـاهم البريطانيون بذلك ـ تمشيا مع أساليبهم الخاصة ـ فى تحـرير الهند الدنيا • وقد كان لمشرق البنغال فى مشروع كيرزن الحدود نفسها التى لباكستان الشرقية اليوم، ومن هنا نستنتج أن الخلافات الدينية بين المسلمين والهندوس كان لهـا تأثيرها على الحـركة الوطنية •

ويظهر ذلك فى حالات اخـرى من بينها انشاء الرابطة الاسلامية لكل الهند بزعامة حاكم داكا المغولى ، فيكار الملك ، وبعثة أغا خان الى نائب الملك • كان ذلك عـام ١٩٠٩ ، وفى العـام نفسه بدأت الحكومة البريطانية تطبق نظـام تقسـيم الناخبين الى مسـلمين وهندوس وبدأ بين الرابطة الاسلامية والمؤتمر الهندى صراع مثل صراع القطة والكلب •• ولكن فيما يتعلق بالحركة الوطنية سارت جهودهما فى خطوط متوازية ، فقد كان المسلمون مثلا هم الذين استثيرت مشاعرهم ضد الاوروبيين عنـدما فقدت تركيـا أحـد أقاليمها فى الحرب التركية الايطالية وحرب البلقان الأولى ، وهكذا لم يكن البريطانيون أصحاب السلطة الوحيدة فى الهند فى مطلع

الحرب العالمية الأولى فقد أصبحت الحركة الوطنية عاملا قويا لابد أن تحسب الحكومة البريطانية حسابه ٠

وكما حدث فى اليابان ، وقع حادث بسيط نسبيا ترتبت عليه نتائج أكبر مما قدرت حينذاك ٠ ففى مايو ١٩١٤ أبحرت السفينة اليابانية كاماجاتا مارو الى ميناء فانكوفر وكانت تحمل على ظهرها أربعمائة هندى يخضعون للحكم البريطانى ، أغلبهم من السيخ والمسلمين، رحلوا من بلادهم فى محاولة للهجرة الى الولايات المتحدة وفق قوانين الهجرة الامريكية ، ولكن الولايات المتحدة رفضت السماح لهم بدخول أراضيها ، وكان ذلك اهانة أخرى لآسيا ٠ وحينما عادت السفينة الى كلكتا ثارت الاضطرابات التى قتل أثناءها ثمانية عشر شخصا ، وازدادت الكراهية للبيض عامة ، لأن الولايات المتحدة لم تكن وحدها التى رفضت دخول الهنود اليها ٠ ويجب ألا ننسى تجربة التفرقة العنصرية التى عاناها غاندى فى جنوب أفريقيا ٠ لقد كافح سنوات من أجل تحسين مركز الهنود هناك ، وكان معروفا فى الهند ٠

أما خارج جنوب أفريقيا فلم يكن سوى محام مغمور نسبيا ٠

٥

كوريا ، فرموزا ، الفيلبين ، اندونيسيا

قد لا يرضى بعض القراء أن أندونيسيا لا تحصل على قسم خاص بها ، حيث أنها أكبر دولة مؤلفة من الجزر فى العالم ورابع دولة فى آسيا من حيث ضخامة عدد السكان بعد الصين والهند اللتين تضم كل منهما عددا اكبر من السكان ، ومن الناحية الاقتصادية وخاصة من ناحية الانتاج الزراعى ، فليس من الممكن التغاضى عن أندونيسيا اذ كانت عام ١٩٥٠ أكبر دول العالم انتاجا للتوابل ، والكينين ، والكابوك ، وثانى أو ثالث دول العالم انتاجا للتوابل ، للمطاط الطبيعى ، وخام القصدير ، والرابعة فى انتاج البن والشاى والكاكاو ، وزيت النخيل ، والخامسة فى الارز ، والسابعة فى انتاج قصب السكر والبوكسيت . وتقـــوم اندونيسيا من الناحيتين السياسية والاقتصادية بدور الوسيط بين جنوب آسيا وشرقيها ، كما ان موقعها ــ بين محيطين ــ سيجعلها بلا شك دولة بحـرية هامة . اما السبب فى أن نصيبها فى هذا الجزء من الكتاب أقل أهمية ــ من اليابان مثلا ــ أنها كمستعمرة هولندية قد لعبت دورا قليل الاهمية مثل دور هولندا نفسها .

ولا حاجة بنا هنا للحديث عن أهمية كوريا الاستراتيجية ، فان التاريخ وخاصة التاريخ القريب قد اثبت ذلك . ففى الساعات الاولى من عام ١٩٥٠ نشبت الحرب التى نسميها الحرب الكورية على خط ٣٨ المشهور . وقد أوضح تدخل الغرب وخاصة الولايات المتحدة ، والتدخل المضاد من جانب الصين ، أن كوريا ما زالت

كما كانت منذ نصف قرن ، واحدة من أهم المواقع الاستراتيجية فى منطقة المحيط الهادى .

فان تاريخ كوريا كوحدة سياسية يرجع الى الألف الثالثة قبل الميلاد ، وحتى اذا كان نفوذ الصين قويا فيها بعض الوقت فقد ظلت مملكة كوريا مستقلة نوعا حتى القرن التاسع عشر .

وكانت متاخمة شبه الجزيرة الكورية نصف الصينية المزدهرة لشواطىء اليابان الغربية بمثابة دعوة للعدوان . ففى عام ١٥٩٢ قامت اليابان بغزو كبير لكوريا ولكنها ردت على أعقابها لسبب واحد هو امتلاك البحرية الكورية فيما يبدو لسفن مسلحة ، ويعد هذا من أهم التطورات عندما كان القوس والسهم لا يزالان هما السلاحان التقليديان فى ذلك الوقت ، كما يعد أحد الطوابع المميزة للثقافة العالية عند الكوريين حينذاك . وفى ذلك القرن نفسه كان الكوريون يستخدمون قوارب معدنية متحركة كما طوروا لأنفسهم حروفا أبجدية فريدة فى اكتمالها .. ولكن خطر اليابان ظل ماثلا ، وبعد نجاح الهجوم اليابانى على الصين عام ١٨٩٥ ، أكمل اليابانيون انتصارهم بأن أرغموا الصين المغلوبة على الاعتراف باستقلال كوريا من أجل مصلحتهم الذاتية لا من أجل مصلحة الكوريين . وصارت شوزن — وهذا هو الاسم اليابانى لشبه الجزيرة — حالة نموذجية لاقليم ملحق باليابان بطريقة أوسع مما كانت عليه المستعمرات الاوروبية .

ولسوف يعترف أى باحث محايد بأن اليابان هنا فاقت معلميها . ولقد اعترفت بريطانيا فى المعاهدة الانجليزية اليابانية عام ١٩٠٢ بمصالح اليابان الخاصة فى كوريا على الرغم من معارضة ذلك لرغبات روسيا ، لان خوف روسيا من كوريا المستقلة كان أقل من خوفها من خضوع كوريا لليابان ، وعارضت روسيا وجود القوات اليابانية فى كوريا . ولكن كان عليها أن تتخلى عن احتجاجها

عندما ظهر لها مدى قوة اليابان العسكرية التى كانت قد بخستها حقها فى التقدير .

على الرغم من بقاء كوريا محايدة رسميا فى حرب ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ ، فان جيشا يابانيا وصل اليها ، ثم فرضت عليها الحماية اليابانية ، غير أن الكوريين الذين عرفوا جيدا المعنى المؤلم لكلمة الحماية ، لم يستسلموا للغزاة الفاتحين فلجأوا الى الدول الاجنبية، ولكن هذه الدول لم تقدم اليهم اية مساعدة . واذ احسوا بالمرارة فعلوا كل ما فى وسعهم ، لأن أحدا لا يستطيع أن ينكر حق أى شعب مقهور فى الثورة . وقتل عشرة آلاف شخص فى الثورة الشاملة التى قامت عامى ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨ ، ثم حل الجيش الكورى وأرغم الامبراطور على الرحيل ولكن نيران الحرية توهجت ، فقتل الحاكم اليابانى كونت هيروبيمى ايتو ، فى هاربين بمنشوريا بيد احد الكوريين فضمت اليابان كوريا اليها فى الحال . وأصبحت اليابانية لغة رسمية ، وكان ذلك عبئا ثقيلا واجراء مهينا ، ولكنه لم يكن عسير الاحتمال عند الاغلبية الامية ، وخضع الكوريون لاجراءات صارمة اخرى ، لعل اشدها قسوة محاولة محو العقائد والثقافة الكورية . وكانت كوريا فى القرن الرابع قد اعتنقت البوذية ، وان كانت الكونفوشية قد حلت محلها تدريجا على مر القرون . فانه لم تكن لدى الكوريين الرغبة فى الوقوع ضحية لعقيدة السنتوية اليابانية مثلما لم يكونوا راغبين فى الوقوع ضحية لسياسات القرصنة اليابانية ، وفرض على الفلاحين الكوريين الغارقين فى الديون ان ينتجوا بعرق جبينهم الارز والقطن الذى كانت تحتاجه اليابان ، كما صدر الفحم والحديد من بلادهم على سفن اجنبية وقطعت غاباتهم . ولم يعش فى رخاء الا طبقة واحدة خاصة فى الشمال تضم كبار ملاك الارض وجزءا من الرجوازية التجارية ، لاسيما بعد أن قامت اليابان بدافع من مصالحها الخاصة بتصنيع الجزء الشمالى بعض الشىء حوالى عام ١٩١٥ ، وظلت كراهية الكوريين لليابان مشتعلة حتى عام ١٩٤٥ .

فرموزا ، أو تايوان باللغة الصينية ، أرض المنحدرات التى تعتبر الآن آخر معاقل الصينيين الوطنيين ضد السيطرة الشيوعية على القارة ، جزيرة تواجه الشاطىء الجنوبى الشرقى للصين ، تكاد أن تعادل هولندا من حيث المساحة ويفصلها عن أرض الصين مضيق فرموزا البالغ عرضه ٩٠ ميلا •

ولقد بذل السكان الاصليون ـ الذين تنتمى لغتهم الى مجموعة لغات الملايو(malay groups) قدرا كبيرا من المقاومة ضد الغزاة الصينيين فى سالف الأيام ، وظلوا مستقلين حتى القرن السابع عشر • ثم وقعت الواقعة حين استعمر الهولنديون فورت زيلانديا بالقرب من تينان اذ كان ذلك سببا دفع الصين الى ضم فرموزا اليها عام ١٦٨٠ . وتحت وطأة الهجرة الصينية اندفع سكان فرموزا فى القرون التالية الى التلال وما أن حل عام ١٨٩٥ عندما أعطت معاهدة شيمونوسيكى فرموزا الى اليابان حتى كانت فى ذلك الوقت قد أصبحت جزيرة صينية بالفعل . واذ كان الصينيون يجهلون حقيقة السياسات العليا فقد أعلنوا استقلال تايوان ولكن الجنود اليابانيين أخمدوا حركتهم بعد قتال عنيف . واستغل السادة الجدد فورموزا مثلما فعلوا فى كوريا بعد عام ١٩١٠ . وذهب الأرز ، والشاى ، والسكر ، والجوت الى اليابان • وحينما شرعت شركة ميتسوى اليابانية فى قطع اشجار الغابات قامت ثورة ليشى باحتجاجها الجنونى •• الا أننا لا نستطيع الحديث عن وجود حركة وطنية حقيقية الا مع نهاية الحرب العالمية الاولى فحسب ،ولكن فى ذلك الوقت لم يكن قد تبقى شىء للقهر ••

وحيث اننا الآن بالقرب من الصين ، فلنقم اذن بجولة الى هونج كونج فهذا الميناء التجارى ، مستعمرة التاج البريطانى ، لم يكن الا مجرد جزيرة صحراوية صخرية ، تأوى صيادى الاسماك ، ويلجأ اليها القراصنة ، عندما وقع فى عام ١٨٤٩ ـ أثناء حرب الأفيون ـ فى أيدى البريطانيين ، والغريب حقا أن البريطانيين

لا يزالون هناك . وفى الفترة من ١٩٠٠ ـ ١٩١٤ ، لم يكن للصينيين أى فرصة لازاحة النير البريطانى .

اكتشف فيرناو ماجلان البرتغالى الفيلبين عام ١٥٢١ أثناء رحلته البحرية حول الكرة الارضية (١٥١٩ ـ ١٥٢١) ثم احتلها الاسبان فى القرن السادس عشر وأسسوا مدينة مانيلا فى مايو ١٥٧١ وسموا الأرخبيل باسم فيليب الثانى .. وكانت المستعمرة قد صارت اسبانية الى حد بعيد ، حين قامت الحرب بين اسبانيا والويالات المتحدة حول كوبا عام ١٨٩٨ ، وخسر الاسبان الحرب فى جميع الجبهات . وفى العاشر من ديسمبر من العام نفسه سلمت الفلبين للولايات المتحدة بمقتضى معاهدة باريس .

وكانت قد بدأت فى الايام الابيرة من الحكم الاسبانى حركة وطنية اصلاحية بين شعب الفيلبين بقيادة العصبة الفلبينية « ليجافيلبنيا » (التى تأسست عام ١٨٩٢) وكانت موجهة بصفة خاصة ضد النفوذ الاقتصادى والروحى للارساليات الكاثوليكية ، وكان من أبرز زعمائها دكتور جوزيه ريزال وهو جراح عيون ذو شهرة عالمية ، وعالم مقتدر فى علم الاجناس ورسام ونحات له قدرته الملحوظة . وحين قامت ثورة عام ١٨٩٦ ـ ١٨٩٧ بقيادة أميليو أجوينالدو أعدم الاسبان ريزال أعظم الزعماء الوطنيين فى الفيلبين ، وتم سحق الثورة . ولكن حينما دمر الامريكان الاسطول الاسبانى فى ميناء مانيلا عام ١٨٩٨ نظم اجوينالدو جيشا وطنيا لتحرير الفيلبين ساعد الامريكيين على هزيمة الاسبان .

ولقد تصرف أجونيالدو على ذلك النحو اعتقادا منه بانه كان يناضل من أجل استقلال الفيلبين ولكن السادة الجدد كانت لهم أفكار أخرى ، فضموا الفيلبين الى الولايات المتحدة . حينئذ اعلن أجونيالدو رفضه للسيادة الامريكية ، واعلن سنة ١٨٩٩ ان الفيلبين دولة مستقلة ثم شن ضد الامريكيين حرب عصابات استطاع بها أن يناوش خلال ثلاث سنوات قوة امريكية كبيرة .

وكان قد اتضح أثناء ذلك أن الحكم الامريكى يختلف عن الاستعمار الاوربى الى الحد الذى سارعت فيه الحكومة الامريكية الى اعطاء الفيلبين نوعا من الحكم الذاتى · وحينما تمكن جنرال مارك آرثر ـ أبو ماك آرثر قائد الحرب العالمية الثانية ـ من قمع الثوار واسر اجوينالدو ، انحنى أسيره للموقف وامر بوقف القتال. وفى عام ١٩٠٢ قامت حكومة وطنية فى الفيلبين ، واختارت الولايات المتحدة أعضاء المجلس النيابى الاول . ثم انتخب الشعب الفيلبينى المجلس الثانى نفسه واحتفظ الكونجرس فى وشنطن لنفسه بحق الفيتو ، ثم تلت ذلك الاصلاحات الاقتصادية . ومن بينها مصادرة جزء من مقاطعات الارساليات الغنية ، وكذلك الاصلاحات السياسية مثل فصل الكنيسة عن الدولة . وحينما اجريت انتخابات المجلس التشريعى حصلت الاحزاب الوطنية المتحدة ـ بارتيدوبونيون ناسيوناليستا ـ على حوالى ٥٠ ٪ من المقاعد .

وفى عام ١٩٠٩ حدث تطور يعتبر مخالفا للمألوف فى منطقة استعمارية فقد منحت الفيلبين بمقتضى القانون المسمى باين ـ الدريتش تاريف ـ حرية دخول منتجاتها ـ خاصة السكر والطباق ـ الى الولايات المتحدة على نطاق صغير فى أول الأمر ، رفعت عنها القيود فيما بعد منذ عام ١٩١٣ . وكانت هذه السياسة الامريكية الحديثة تعنى من ناحية احتمالات حدوث ارتفاع مستوى المعيشة للفيلبين ، ومن ناحية اخرى ، ربطها اقتصاديا ومن ثم سياسيا بالولايات المتحدة . ومع ازدياد الحريات السياسية تدعمت هذه الروابط بالدرجة نفسها ، وهذا التطور يختلف كثيرا عما حدث فى اندونيسيا ، حيث قيدت الحريات السياسية بقدر كبير ، ومنعت السلطات الهولندية الوطنيين من دخول مجال الانتاج .

على أنه فى الفيلبين لم يكن سكان الفيلبين الاصليين ، هم الذين استفادوا اكبر فائدة من التجارة المزدهرة مع أمريكا بل كان المستفيدون هم العائلات الاسبانية القديمة والطبقة الوسطى

الصينية . اما الفلاحون فقد ظلوا فقراء ، حيث ظل جوهر النظام الاقطاعى على حاله ، وقد كان الفـلاح ـ ولا يزال ـ مضطرا أن يرقص على أنغام الكاكيك وهو وكيل المالك الكبير فى اقطاعيته لانه الشخص الوحيد الذى يستطيع ان يقدم النقود التى يحتاجهـــا الفلاح » .

ولنختتم هذا الفصل من الكتاب ينبغى أن نشير الى اهم نواحى الحركة الوطنية الاندونيسية بين عام ١٩٠٠ - ١٩١٤ . ففى عام ١٩٠٠ كانت الاغلبية الساحقة من الاندونيسيين من « التاينس » ـ أى صغار الفلاحين وصيادى السمك ـ أو يعملون اجراء عند الأوربيين فى مزارع السكر والطباق ، وحقول الشاى والبن ، وفى زراعة التوابل والكينين . وفى جاوة بصفة خاصة حيث كان يعيش ثلثا سكان اندونيسيا على مساحة لا تزيد عن ٧ ٪ من مجمــوع مساحة الجزر الأندونيسية ، فان التفــاوت بين كميـات محصول الارز وبين عدد السكان كان يزداد باستمرار . ففى هذه الفترة ، بدا ان خصوبة الارض قد بلغت حدودها القصـــوى ، ما لم يتم اقامة مشروعات ضخمة للرى ، وبينما كانت المزارع الأوربية تلتهم مزيدا ومزيدا من الأرض ، كان سكان الجزر يتزايدون بمعدلات كبيرة . لقد تزايدوا مثل الأرز فارتفع عددهم من ٤ ملايين نسمة عام ١٨٠٠ الى ١٨ مليون نسمة عام ١٨٧٥ ثم الى ٢٩ مليون نسمة عام ١٩٠٠ . واستمر مركز طبقة النبـــلاء الرسمية ممتازا مثـــل الهولنديين ، بينما كون الصينيون ـ كما حدث فى الملايو والفيلبين ـ طبقة وسطى غير محبوبة على وجه العموم .

وفى حوالى ١٩٠٠ يمكن ان يلاحظ ان الحكم الهولندى لحقه الضعف والقوة فى نفس الوقت ففيما بين ١٨٩٥ - ١٩٠٥ وقعت حروب تسمى بحروب تهدئة الاقاليم الخارجية وقد اشتهرت فى طورها الاول ضد لومبوك (١٨٩٤) وفى الطور الأخير ضد اتجيه Atjeh (١٨٩٦ - ١٩٠٤) وكان سلطان اتجيه قد طلب عام

١٨٧١ مساعدة تركيا ضد الهولنديين . وكان لتركيا مشاكل أخرى تجذب اهتمامها فلم تقدم أى مساعدة . غير أن المقاومة للهولنديين استمرت حتى تمكن جنرال فان هويتز أخيرا من اخمادها بقسوة وفظاعة . ولعل اهم شيء فعله فان هويتز ورجاله - دون قصد أو رغبة منهم - أنهم وضعوا أساس الوحدة للجمهورية القائمة اليوم .

وتعتبر حالة اتجيه حالة نموذجية للوجه الاول للحركة الوطنية وهو الوجه الاقطاعى . واذا القينا نظرة عابرة فقد يبدو من غير المعقول الربط بين عصابات أتجيه بأسلحتها القديمة وتنظيم الحركة الوطنية التى عملت من أجل الاستقلال فيما بعد . اما من الناحية التاريخية فان بينهما صلة ، حيث نرى هذا التطور من الدفاع البسيط الى ايجاد دولة حرة حديثة . وهنا ايضا نجد وجهين من الصراع بين آسيا وأوربا كما رأيناه فى حالة غاندى والهند المعاصرة وفى حالة الصين من ثورات التايبنج والبوكسر Boxer حتى الثورة الحمراء فى جنوب كوانجسى الى الصين المعاصرة .

وهؤلاء الذين يعتبرون صحوة اندونيسيا نتيجة « للسياسة الاخلاقية » التى طبقتها هولندا عام ١٩٠٥ - وان يكن على غير رغبة منها - انما يضعون العربة قبل الحصان . فان الاسس الحقيقية للسياسة الاخلاقية الهولندية لم تكن أخلاقية حقا ، بل كانت - فى بساطة - اقتصادية . لقد أخذ الموقف فى التغير قطعا فى السبعينيات . ففى مثل هذا البلد حيث تنتشر الامية ، لم تكن هناك امكانيات لايجاد حكومة حديثة أو تطوير مزارع المطاط ، وانشاء الطرق ، واحواض السفن ، والسكك الحديدية ، والمعامل لتكرير السكر على النمط الحديث . ولهذا نفذ عدد من مشروعات الرى ، وأنشئت مجموعة من المدارس الابتدائية ، واقيمت وزارة للصحة . وتكشف الوجه الحقيقى للسياسة الاخلاقية ، من الحقيقة

الواقعة وهى أن هولنــدا لم تدفــع تكاليف هــذه المشروعات من أثمان كميات الجوز التى استوردتها هولندا من أندونيسيا فى القرن التاسع عشر ، وانما دفعتها أساسا من الضرائب التى فرضت على شعب تعلم بالقدر الكافى كى يفهم دلالة هذه المشروعات .

لقد كانت السياسة الاخلاقية سياسة « تجنيــد » للشعب ، وظلت كذلك ، وفى السياسة الاستعمارية كانت تستخدم عبارات مثل « بيان العهد الجديد » لكى تخفى عمن يستخدمونها وعــن الشعوب الاخرى أن تطوير المستعمرات وسكانها امر مرغوب فيه الى المدى الذى قدم المؤسسات الصناعية الحديثة ، جهاز الادارة الحديثة المترتب عليها فحسب .وقد كان الصراع بين الرغبــة فى دفع هذه التطورات واستمرارها وبين الرغبة فى منعها أو تعويقها على الاقل هو مصدر كل من الحركات الوطنية ، وخطط القمع التى استخدمتها الحكومات الاستعمارية .

لقد ظهرت أولى امارات الحركات الوطنية فى أندونيســيا بين الصينيين الذين يظلون صينيين فى أى مكان يولدون فيه . كان ذلك رد فعل لبلوغ اليابان درجة التساوى مع الدول الأوروبية . فقد أصبحت اليابان دولة كبرى بمقتضى المعاهــدة الانجليزية ــ اليابانية ، وهكذا كانت اليابان تظهر فى احصاءات الشركة الهولندية للهند الشرقية بين الدول الأوربية وليست بين الدول الاسيوية . وبدأ الصينيون فى اقامة مدارسهم الخاصة ، وساهموا بدور بارز فى ثورة الصين عام ١٩١١ .

أما الحركة بين الاندونيسيين فقد بدات عام ١٩٠٨ ــ ١٩١١ ، وسنمر سريعا بجهود التحرير التى قامت بها رادين اجينج كارتينى (١٨٧٩ ــ ١٩٠٤) ابنة حاكم جابارا فقد كان اهتمامها الاساسى موجها الى تعليم المرأة ، وتعتبر أول عــلامة للتيار الجميل ، بين الطبقة الارستقراطية فى جاوة تاسيس جمعية « بودى أوتومو »

عام ١٩٠٨ ـ وعلى الرغم من ان هذه الجمعية كانت تضم عناصر متطرفة ، فقد كانت معتدلة فى أهدافها ، اذ ركزت دعايتها ـ أساسا ـ على تحسين التعليم ، ولم تكن تعطى أى اهتمام للسياسة قبل عام ١٩١٨ ».

وطرأت أولى التغييرات الجوهرية على الصورة العامة عام ١٩١٢، عندما تكونت ساريكات اسلام Sarekat Islam وكانت أصلا منظمة تجارية اهتمت أساسا بمقاومة الاحتكارات الاقتصادية للصينيين ، فان نير الصينيين كان أثقل على الأندونيسيين حتى من نير الهولنديين • غير أن الحركة الوطنية الحقيقية كانت قد ولدت، وانتشرت فى أنحاء جاوه كالعاصفة وارتفع عدد أعضائها خلال بضعة شهور فى جاكارتا الى ١٢ الف عضو ، وكانت هذه بادرة هامة . ورغم أن مطالبها لم تكن محددة ، فانها كانت أول منظمة اندونيسية ينظر اليها الاوربيون بعين الاعتبار وسببت لهم الشعور القلق ، خاصة لطابعها المزدوج من القومية والدين . وقد تلقت ملكة هولندا صيحة من أحد الموظفين تقول : « ان ساريكات اسلام تثير مشاعر الناس ، ونحن فى سبيلنا الى فقدان مستعمراتنا » ، ولكن الصيحة كانت تنطوى على مغالاة شديدة • ومع أن الخوف يورث العمى » فان هذا الموظف قد رأى الأمور بوضوح الى حد ما ، وكان رأيه على الاقل رأيا له تأثيره اذا قورن بما كانت تقوله الصحف الهولندية فى اندونيسيا ».

وكانت المنظمة المحمدية Mohammadija اقل اهمية ؛ وهى منظمة اسلامية حديثة تكونت عام ١٩١٢ . وكانت منظمة غير سياسية ، موالية للحكومة الهولندية وكانت تأمل باحياء التقاليد الاسلامية وانعاشها أن تجدد اندونيسيا اجتماعيا واقتصاديا ، وقد سارت فى نفس الاتجاه الذى سار فيه كثير من الدوائر الاسلامية فى الدول الاخرى •

وفى نفس العام وجدت الارادة الوطنية الفتية تعبيرا عنها فى

جزء ثالث من الشعب هو الذى يضم الاوربيين الآسويين وجدير بالذكر ان هذه المجموعة التى بدا انها اول مجموعة مستعـــدة للتحرير لم تكن بحكم وضعها بين الاجناس عاملا مهما فى الكفاح من أجل الاستقلال ».

ان هذه الأحداث وهى العلامات الأولى للعاصفة التى قدر لها أن تنزع السيطرة الاستعمارية القديمة فيما بعد ، كانت الى درجة كبيرة رد فعل لنظام الادارة الاستعمارية ونتائجه ، ومع أن الاصلاح كان هدفها ، فان الاساليب التى استخدمتها الادارة كانت تعتبر امعانا فى الجور ، مثال تلك الحرب فى آتجيه وغزو الاقاليم الاخرى والاصلاحات التى اجريت فى المناطق التى كانت لا تزال مستقلة والتى ترتب عليها اخضاع السلاطين للحكم الهولنـــدى مباشرة ».

ان أركان المستقبل بدأت تعـد ، بنصف وعى ، وظهرت دلائل تشير الى أن انظار اندونيسيا ترنو فى صحوتها عبر الحدود ، فقد كان هناك رد فعل للحرب الايطالية التركية (١٩١١ ــ ١٩١٣) وحروب البلقان اذ كان الاندونيسيون يؤيدون تركيا تأثرا بالدوافع الدينية فى المقام الأول ، الى جانب شعور غريزى ينبعث من كـون آسيا تحارب ضد أوربا .

٦

الهند الصينية ، الملايو ، تايلاند ، بورما

يستخدم أسم الهند الصينية هنا للدلالة على الدول الأربع المستقلة .. فيتنام الشمالية ، فيتنام الجنوبية ، كمبوديا ، لاوس وفيتنام بلاد الآناميين وهى أكبر وأخصب أراضى الهند الصينية وأكثرها كثافة بالسكان ، كانت مقسمة من قبل الى ثلاثة أقاليم.. شمال فيتنام ووسطها وجنوبها ظلت تحمل حتى عام ١٩٥٠ أسماء تونكين ، أنام ، وكوشين الصينية Cochinchina ولا يمكننا اعتبار الهند الصينية وحدة سياسية حقيقية ، خاصة بعد أن انقسمت فيتنام الى شقين بقيام حرب العصابات بين حكومة باوداى الموالية للفرنسيين وحكومة فيت منه الشيوعية .

ولقد خضعت الهند الصينية معظم الوقت فى بدايه القرن التاسع عشر لحكم امبراطور أنام وكانت من الناحية الثقافية اقليما صينيا ، تعترف بسيادة امبراطور الصين عليها واذ كانت اقليما آسيويا لم يحتله أحد فقد اجتذبت انظار الأوربيين وفى عام ١٨٥٨ وصل الاسبان والفرنسيون برقه اقل مما اظهروه فى أقاليم أخرى ورغبوا فى التعرف الى السكان . وفى صباح مشرق أرعدت بنادق السفن على شاطىء توران ، وسقطت أول قذائف الفرنسيين على مستعمرة المستقبل وصارت الهند الصينية تتعرض حينذاك لما حل من قبل بنصف آسيا وسلمت الأقاليم الصينية لسيادة الفرنسيين واحدا بعد الآخر . استسلمت كوشين الصينية على الفور ، وكمبوديا بعد خمس سنوات .. وأنام وتونكين فى ١٨٨٤ - ١٨٨٥ . وكانت لاوس آخر بلد فى القائمة وكانت تسمى من قبل

لأن اكسانج ـ أرض المليون فيل ـ التى أصبحت بعدصراع طويل مع تايلاند « سيام » محمية فرنسية وفى عام ١٨٨٧ ، كانت الأقاليم المختلفة قد توحدت لأغراض ادارية فى اتحاد الهند الصينية •

وفى الفترة ما بين ١٨٩٧ـ١٩٠٢ كان الحاكم العام هوالسياسى الفرنسي المعروف بول دوميه • ولايمكن انكار حدوث خطوات اصلاحية فى أيامه ، اذ ظهرت السكك الحديدية ، والقنوات ، والسدود وصار فى العاصمة الجديدة هانوى الواقعة على النهر الأحمر حى كبير حديث واحتفظ الحكام الوطنيون بمناصبهم فيما عدا كوشين الصينية التى تحولت الى مستعمرة • وكانت أغلبية السكان من الأناميين الذين يشعرون بأن هناك روابط عديدة تربطهم بالصين حيث جاءت ثقافتهم منها منذ مائة سنة قبل الميلاد • وكانوا يعيشون فى الأقاليم الساحلية الثلاثة تونكين ، وأنام ، وكوشين الصينية : وكان يعيش فى هذه الأقاليم حينذاك كما هوالحال الآن ثلاثة أرباع السكان• وكانت أراضى الدلتا الخصبة على النهر الأحمر فى الشمال وعلى نهر ميكونج فى الجنوب هى التى استغلها الفرنسيون الى أقصى حد وهذه حقيقة جعلت ضياع هذه الأقاليم فى الوقت الراهن ضربة كبيرة انه ليس مما يدعو للارتياح الاضطرار الى شن حرب استعمارية مثلما فعل الفرنسيون وجنودهم الالمان المرتزقة فى فيتنام ، ولكن أسوأ من ذلك اضطرارهم للخروج مرغمين من مستعمرة تنتج ٣٪ من مجموع انتاج المطاط الطبيعى فى العالم • ٣ ٪ من الأرز • ويعتبر أغلب الانامييين من الناحية الدينية من معتنقى الكونفوشية ، بينما تعتنق غالبية الأقاليم الأكثر فقرا وأقل كثافة فى السكان وهى لاوس ، وكمبوديا •• البوذية والتاوية (Toist) •

ومهما تكن المقاومة شديدة قبل اخضاع الهند الصينية ، فقد صارت قبضة الفرنسيين محكمة عليها عام ١٩٠٠ ، ولكن العطب

أخذ يصيب الفاكهة الاستعمارية فوق الشجرة منذ أيام الحرب اليابانية الروسية (١٩٠٤ـ١٩٠٥) ودخلت الهند الصينية المرحلة الأولى للحركة الوطنية ، وظهرت المقاومة من جانب الأمراء والنبلاء والطبقة الأدنى من الصينيين الذين كانوا يحصلون على اقل القليل من كل الكتب التى يتعلمونها. ثم زاد من اثارة حالة السخط عامل ثان هو سوء معاملة الفرنسيين لامبراطور أنام ثان ثاى ، فقد زعموا أنه أصيب بالجنون وأرغموه على التنازل عن العرش ثم نفوه عام ١٩٠٧ ومن بين جميع الأعباء التى وقعت على الشعب وخاصة الفلاحين ، كان اثقلها هو الضرائب غير المباشرة والاحتكارات الفرنسية للثروات بما فيها الملح والأفيون والكحول . وليس مما يدعو للدهشة اكتشاف كثير من المؤامرات بين ١٩٠٦ـ١٩٠٨ كما ان كثيرا غيرها لم يكتشف .. وكانت فى أغلبها توجه من اليابان ـ ألم يكن صن يات ـ سن يقوم ذلك الوقت بالاعداد للثورة الصينية فى اليابان. ويمولها الامراء والنبلاء. أليس مما يدعو للدهشة أيضا أن المقاومة أخمدت بعنف شديد ولقد ظلت احتجاجات الحركة الأنامية الشابة دون جواب وفى اثناء ذلك الوقت كانت المرحلة الثانية من انتفاضة الشعب فى دور التكوين من خلال سياسة الاستيعاب الفرنسية التى تضمنت ارسال كثير من طلبة أنام للدراسة فى باريس كانوا يعودون لتقوية الروح الجديدة للمقاومة فماذا تستهدف سياسة الاستيعاب ؟

ان لكل دولة أوروبية أساليبها الخاصة فى الاستعمار فالهولنديون خافوا من ادخال اللغة الهولندية فى المدارس الابتدائية ليس من أجل اخضاع اهل البلاد فحسب بل اعتقادا بضرورة ابقاء ثقافة البلد على حالها ولكن البريطانيين من ناحية أخرى ادخلوا لغاتهم فى فترة مبكرة باعتبارها لغة التعليم فى المدارس الهندية بينما تركوا للهنود فى الوقت نفسه حرية التصرف فى الشئون الثقافية ، بينما اعتقد الفرنسيون أن أى شخص لايمكن ان يكون

متعلما اذا لم يتكلم ويفكر ويشعر مثل الفرنسيين • وحسب وجهة النظر الفرنسية فان الأوربيين أنفسهم كانوا يعتبرون فى مستوى أدنى اذا لم يعرفوا الفرنسية التى كانت فى ذلك الوقت اللغة الدولية واللغة الدبلوماسية اوحيدة .

وفى الهند الصينية ٠٠ كان نفوذ الصين والصينيين يسير جنبا الى جنب مع معدل الغزو خاصة فى الجنوب ، حيث كانت كوشين الصينية معقلا حقيقيا للتجار والمثقفين ، وفى وادى النهر الأحمر وفى الاراضى المرتفعة كان الأوربيون هم الذين استغلوا مزارع السكر والبن ومناجم الفحم والقصدير والزنك •

وهكذا فى عام ١٩١٤ كانت الظروف الذاتية والموضوعيـــة اللازمة لكسب معركة الحرية ، قد وجدت بالفعل، موضوعية بسبب الحكم الأجنبى وذاتية لازدياد الوعى القومى عند الأناميين ، غير أن الامر كان يتطلب ضربة ما تدفـــع الكرة الى الدوران وقد قامت الحرب العالمية الأولى بتسديد هذه الضربة •

استخدم اسم الملايو فى هذه الصـــفحات للدلالة على الاقليم الذى يكون الآن اتحاد الملايو وسنغافورة ، أى الجزء البريطانى من خليج الملايو • وقد استعمره فى القرن الرابع عشر المـــلايويون القادمون من سومطرة • وفى بداية القرن السادس عشر احتـــل البرتغاليون ٠٠ ملقا على المضيق المشهور بهذا الاسم وجعلوها واحدة من أولى المستعمرات الاوروبية فى شرقى آسيا وسيطروا عـــلى تجارة القصدير والتوابل ونظموها ، حتى طردهم الهولنديون فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، وسيطروا هم على التجـــارة مع كل منطقة الخليج لمدة مائة عام • وفى حوالى عام ١٨٠٠ وصل الانجليز وحصلوا من سلطان قيداه Kedah على جزيرة بينانج ، واتخذوها مركزا للتجارة وفى عام ١٨٢٤ أخذوا ملقا من الهولنديين

مقابل بنكاهولو «نكولين» على شاطىء سومطرة الغربى. وفى أثناء ذلك الوقت كان ستامفورد رافلس قد أقام البيوت والتحصينات الأولى فى سنغافوره «١٨١٩» واعترف بالملايو اقليما بريطانيا بينما أصبحت بينانج ، وملقا ، وسنغافوره رسميا مستعمرات تابعةللتاج البريطانى ووضعت كلها تحت أسم مستعمرات الخليج ، وفى تلـك المنطقة توجد كل المدن الكبرى • ومن ذلك الوقت مضت بريطانيا فى تدعيم مركزها ، فأخضعت المنطقة كلها بين بينانج وسنغافورة فى الفترة من ١٨٧٤ الى ١٨٩٥ للحكم البريطانى ، وتشمل ولايات بيراك ، سيلانجور ، نيجرى سيمبيلان ، باهانج ، وجوهور • وقد ادمجت البلاد الأربع الأولى فى اتحاد فيدرالى لم تنضم اليه جوهور والبلاد التى انفصلت عن سيام عام ١٩٠٩ وهى بيرليس ، وقيداه ، وكيلانتان ، وترينجانو وهى جميعا تقع على الحدود الشمالية للملايو الحديثة • وكانت هذه هى آخر ممتلكات بريطانيا فى منطقة الخليج

وقد حان الوقت الآن لنرى كيف واجه السكان الاحتـــلال البريطانى لأنه لم يكن الا احتلالا ، ان الدول الأربع المتحدة ،والدول الخمس غير المتحدة كان لها ما يشبه حكومة ذاتيـــة واذا ما أردنا تلخيص التاريخ المعقد للحركة الوطنية فى الملايو فان ذلك لايمكن أن يتم الا ردا على السؤال : كيف تصرف البريطانيون بحيث استطاعوا البقاء فى الملايو حتى عام ١٩٥٧ ؟ ألم تطرد الأنظمة الأوروبيـــة من جميع المناطق الاسيوية الأخرى ذات الأهمية • ان الاجابة يمكـن العثور عليها فى تاريخ الملايو •

كان يسكن الملايو قبل الحرب العالمية الأولى كما يسكنها اليوم ثلاثة أجناس مختلفة ، ووفقا للاحصاءات الراهنة ٤٢٪ صينيون ، ٤٠ ٪ ملاويون ، واقل من ١٠ ٪ هنودا بين هندوس ومسلمين أما فى سنغافورة فثلاثة أخماس السكان من الصينيين وقد كانت هذه النسب موجودة بالمثل قبل سنة ١٩١٤ ومن بين الأجناس الثـلاثة

كان الملاويون اما نبلاء أو من المزارعين الصغار وصيادى السمك ، وكان العمال فى مناجم القصدير ، والموانى ، ومزارع المطاط من الصينيين والهنود • كذلك مارس الصينيون التجارة والزراعة كما هى عادتهم فى أى مكان فى جنوب شرقى آسيا • وقد شكل هذا الخليط من الأجناس عقبة فى سبيل نمو الحركة الوطنية وكثيرا ما استغل البريطانيون الحقيقة الواقعة وهى أن الصينيين اغلبيـــة كذريعة لاستمرار حكمهم ، بحجة حماية الملاويين من تهديد السيطرة الصينية وكان الوضع السياسى مرتبكا بالدرجة نفسها التى كان عليها الوضع الاجتماعى والاصول الجنسية وكان انقسام البلد الى تسع ولايات صغيرة ومستعمرات تابعة للتاج لمصلحة بريطانيا •• وكونها استطاعت ان تحكم هذه البلاد الغنية حتى الآن تقريبايرجع الى الحقيقة الواقعة وهى ان القاعدة الرومانية القائلة « فرق تسد » كانت أسهل فى التطبيق هناك عنها فى أى مكان آخر •

أما العامل الثالث فهو الاستغلال الاقتصادى الشديد الذى كان لبريطانيا فيه مصلحة كبرى فان مالا يقل عن ثلثى المناطق المزروعة قد خصصت للمطاط ــ وهذه حقيقة تصدق على الفترة قبل ١٩١٤ الى حد كبير ــ فتنتج الآن ٤٥٪ من الانتاج العالمى للمطاط وحوالى ١٠٪ من زيت النخيل ولباب جوز الهند المجفف وما يكاد يرتفع الى الربع من الصفيح وجميع هذا الانتاج كان يصدر عن طريق ميناء سنغافورة وهو من أهم الموانىء فى العالم أما رابع وآخر عامـــل من عوامل ضعف الحركة الوطنية فى الملايو ان الحركة الوطنيةوقعت على عاتق الأقلية الملاوية الضعيفة اقتصاديا ولقد اعتنقوا الاســلام مثل الاندونيسيين فى القرن الثالث عشر وكان المسلمون خــلال الحكم البريطانى يسيطرون على الحركة الوطنية وظلت حتى انتهــاء الخلافة سنة ١٩٢٤ مرتبطة بحركة الوحدة الاسلامية الا انه ظهرت عناصر حديثة مثل المحمديين فى اندونيسيا واذ كان البريطانيون يفهمون فن الحكم احسن من أى شعب آخر فقد تظاهروا بأنهـــم

انصار الاسلام ، ثم أن كثيرا من الهنود والعرب الذين أثروا عن طريق التجارة ، والذين يعتبرون من الناحية الاقتصادية سادة الفلاحين وصيادى السمك الملاويين ، كانوا أيضا مسلمين وهو ما استغله البريطانيون لتفرقة الوطنيين • وباختصار فان الملاويين فى الملايو وهم الممثلون الطبيعيون الوحيدون لحركتها القومية ،قد واجهوا فى كثير من الأحيان أعداء غير ظاهرين وهذه ظاهرة لها أهميتها الكبيرة بالنسبة لأى حركة سياسية ، فان الشعب الذى يرغب الحرية لن يرضى حين يشعر بفقدانه الحرية ، بل سيعرف من هم خصومه •

لقد عمرت تايلاند ــ سيام سابقا ــ بالسكان منذ عهد بعيد جدا وتبلغ مساحتها ٢٠٠ ألف ميل مربع من الجبال والسهول • تغطى الغابات الاستوائية ثلثى مساحتها وتنتشر فى بقيتها حقول الارز ومزارع المطاط •

فى القرن السادس تأثر شعب (Khmer) الذى عاش فى شمال شرقى البلاد بالثقافة الهندية • وفى القرن الثامن كانت وديان الأنهار الشمالية المجاورة لشيانج ماى مركز المملكة هاريبونداجايا وقد انهارت حضارتها فى القرن الثالث عشر عندما غزتها شعوب التاى قادمة من يوتان جنوبى الصين ولا يزال هؤلاء الغزاة يحكمون سيام • وباسمهم صارت البلاد تسمى رسميا تايلاند وقد قامت الدولة منذ البداية على البوذية وعلى أساس الأنظمة السياسية الهندية وأصبحت عاصمتها اجوثيا الواقعة شمال بانجكوك وقد تعددت حروبها مع كل من الصين وبورما فى الفترة ما بين القرن الرابع عشر والقرن الثامن عشر ومع ذلك اتسعت أراضى تايلاند وما ان انتهى هذا القرن الأخير حتى كانت حدودها تمتد من شواطىء ميكونج فى الشرق الى شواطىء المحيط الهندى فى الغرب وكان اللقاء الاول مع اوروبا أمرا شاعريا اذا ما قورن بما حدث بعد ذلك !

فان البحارة البرتغاليين والهولنديين الذين وصلوا الى شواطئها

كانوا لايهتمون بشىء سوى التجارة ومن ثم لم يكونوا خطرين ولكن الفرنسيين كانوا هم الذين شنوا حوالى عام ١٦٨٠ سلسلة من الحروب الأهلية كان من نتيجتها طرد جميع الأوربيين وأغلقت سيام حدودها فى وجه الأجانب مثلما فعلت اليابان تماما ٠

فى عام ١٧٦٢ أفلحت اسرة جديدة هى الأسرة الحاكمة الآن فى توحيد البلاد وفى ذلك الوقت لم يكن الأوروبيون قد اختفوا تماما من الميدان ٠ وقد تمكن البريطانيون عام ١٨٢٦ من عقد معاهدة تجارية محدودة ، وكان هذا بداية اتصالات جديدة بين هذه الدولة المتخلفة وحضارة الفحم والحديد على بحر الشمال ٠ وقد انشئت أولى القنصليات الأوربية على شواطىء شاوفراجا المليئة بالغابات جنوب العاصمة بانجكوك ، فى عهد راما الرابع ـ فراكوم كلاومونجكوت (١٨٥١ـ١٨٦٨) ٠٠ ولم يكن من الممكن الوصول اليها فى البداية الا عبر الماء والأمر الذى له دلالته أن أول طريق حديث شق فى تايلاند فى هذه الفترة لربط القنصليات بالقصر الملكى ٠ وكان مونجكوت أول ملك فى سيام يدرك أن الغرب يعنى شيئا أكثر من السفن الحربية ٠٠ فقد شعر ـ كما شعر اليابانيون فى ذلك الوقت ـ أن بلاده يمكن أن تحتفظ بنفسها فى مواجهة الأوربيين اذا أدخلت على حياتها جزءا من الحضارة الأوربية ٠٠ ولقد أجرى كثيرا من الدراسات الواسعة فى الثقافة الغربية وهذه حقيقة لاحظها البريطانيون اذ كان القنصل البريطانى دون غيره يجرى من فراشه عند منتصف الليل ليشترك فى بحث موضوع يتعلق بالجغرافيا أو يعطى الترجمة الانجليزية الصحيحة لكلمة ما كما كان عند الملك فى القصر مربية انجليزية تقوم بتعليم أطفاله وزوجاته اللغة الانجليزية وتحدثهم عن الدول الأجنبية والشعوب الأخرى ٠ وبهذا بدأت تايلاند تصحو نتيجة للدراسات الملكية ، أو حب الاستطلاع عند حريم الملك أو نظرة عابرة الى خريطة العالم أو الى كتاب انجليزى أو قطعة فحم ٠

اثناء ذلك كان الفرنسيون قد شعروا بالقلق خشية أن ينفرد الانجليز باخذ القشدة من اللبن وفى عام ١٨٩٣ جعلوا لاوس التى كانت من قبل تابعة لسيام ، محمية فرنسية ، وكان عام ١٨٩٦ عاما سيئا بالنسبة لتايلاند ، فقد اتفق الفرنسيون والبريطانيون على تسوية ماعرف حينذاك بالمسألة السياسية وكان الاتفاق يقضى بضمان كل منهما لاستقلال تايلاند ، وكانت هذه خطوة لها صداها ولكنها كانت تعنى من الوجهة العملية أن سيام أصبحت منطقة محايدة بين الهند البريطانية التى كانت بورما جزءا منها وبين الهند الصينية الفرنسية وهذه قصة قديمة فقد نذكر ضمان استقلال كل من كوريا ، الصين ، أفغانستان ، ايران الذى كان يعنى فى بساطة اذا لم أستطع أن احصل على شىء فلن تستطيع أنت أيضا ». ولم يكن يعنى ان الدول التى تستبد بها الغيرة ـ حتى ولو لم تعترف بذلك ، كانت تفكر بعقلية الغيرة تترك المنطقة المتنازع عليها لتعيش فى سلام ، بل على العكس فان كلا منهما حاولت زيادة نفوذها فى سيام ، وفى عام ١٩٠٧ تم تقسيمها الى منطقتى مصالح ، منطقة فرنسية شرق فيتنام واخرى بريطانية الى الغرب ، ويمكن مقارنة حالة سيام بحالة افغانستان التى لعبت دور الدولة المحايدة بين روسيا والهند ، وحالة ايران التى واجهت المصير نفسه .

الا أنه حدث مع ذلك شىء من التقدم ، فقد وجدت البلاد فى راما الخامس (فراماها شولالونج ـ كورن) حاكما حديثا متطرفا « ١٨٩٨ـ١٩١٠» فقد شقت الطرق وحفرت القنوات واقيمت السكك الحديدية (١٨٩٣) وانشئت مكاتب للبريد والتلغراف عام ١٨٨٣ والغى الرق عام ١٩٠٥ بعد فترة تساهل وأدخلت النظم الحديثة على الجيش ، ووزارة العدل ، ونظام الضرائب ، وكان ذلك شرطا لاقامة السلطة المركزية التى استلزمت الحد من سلطة النبلاء الذين كانوا فى مختلف انحاء البلاد يصدرون قوانينهم الخاصة ويتمردون ضد بانجكوك ، ولكن ما لم يستطع شولالونج أن يمنعه كان هو نهب

البريطانيين للارض سنة ١٩٠٩ عندما فصلوا أقاليم قيداه ،كيلانتان تيرينجانو، وبيرليس عن سيام. وواصل راما السادس فاوجيرافود « ١٩١٠ــ١٩٢٥» الذى كان قد درس فى بريطانيا سياسة ادخال النظم الحديثة ، كان لدى شولالونج حريم يضم تسعمائة زوجة وجارية وكان لزوجاته من القداسة ماجعل احداهن تغرق ولم يجرؤ أحد على انقاذها وقد قصر راما السادس الزواج على واحدة لنفسه ولأى شخص آخر . وقد أدخلت التحسينات على رى حقول الارز واستخدمت فيها الوسائل الحديثة وحل التقويم الأوربى محل البوذى وحدت السخرة . وفى عام ١٩١٧ دخل أول فوج من الطلبة جامعة بانكوك الجديدة التى سميت باسم شولالونج كورن العظيم.

ولكن كانت هناك عقبتان خطيرتان فى طريق التجديد الحقيقى والاستقلال الحقيقى الأولى تشمل ١٢٠ الف كاهن بوذى أغلبيتهم العظمى تعرف قليلا من الأفكار الحديثة وقد تأثروا دائما بالنبلاء فى اتجاه رجعى وكان نظام التعليم كله فى أيديهم وقد دفعوا الشعب الى مقاومة المدنية الحديثة ، وفى عام ١٩٢١ أصبح التعليم اجباريا وفتحت مدارس الدولة . أما العقبة الثانية فكانت العلاقات الاقتصادية مع بريطانيا التى جاء رأس المال كله منها . وقد كان ما يزيد عن نصف الغابات المستغلة .. خاصة أشجار الساج والابنوس مملوكة لرعايا بريطانيين .

وكانت مزارع المطاط الكبرى مملوكة للشركات البريطانية وان يكن مديروها أحيانا من الصينيين . ولكن سكان تايلاند ظلوا فلاحين وصيادى سمك ، وعاشت البلاد على الأرز ، وكانت الصادرات التى تخرج منها أكثر من أى دولة أخرى فيما عدا بورما . ولم يكن العصر الجديد مشرقا بالنسبة لهؤلاء الفلاحين ابناء تايلاند الأصليين حيث ترتب على احلال الاقتصاد الحديث القائم على المعادلات النقدية مكان الاقتصاد الطبيعى القديم ان غرق الكثيرون فى الديون واضطر كثير من الفلاحين الى بيع أراضيهم الى الصينيين فى أكثر الأحيان .

ثمة وجوه شبه كثيرة بين تايلاند وبورما التى تقع بين الصين وتايلاند فى الشرق ، وبين الهند وباكستان فى الغرب ، ففى الشمال توجد سلاسل الجبال المغطاة بالغابات . وفى الجنوب توجد السهول الخصبة مع حقول الأرز ويروى البلاد كلها نهر ايراوادى ، مثلما يروى تايلاند نهر مينام . ومن الناحية التاريخية توجد صلات قربى بين الدولتين . ففى القرن الثالث ، انشأ الشعب الهندى - فى محاولاته التى قام بها للتوسع - مراكز تجارية على شواطىء تيناسيريم وعلى الأنهار الكبرى ونشأت من هذه البدايات المتواضعة ممالك صغيرة تولت نشر العقيدة البوذية بين شعوب بورما والتبت فى وادى ايروادى . وقد اجتاحت بورما - مثل تايلاند موجات الغزاة القادمين من يونان هاربين من وجه فرسان الامير المغولى جنكيزخان الذى كان حينذاك قد امتلك آسيا كلها على التقريب وجزءا من أوربا وامتدت امبراطوريته من بكين الى بولندا ، ومن بغداد الى غابات سيبيريا . ومن ذلك الوقت تراوحت حالة بورما السياسية بين دولة مستقلة وأقليم خاضع للصين وكانت درجات هذه الحالة تتأرجح نتيجة الحروب مع الصين .

فى بداية القرن الخامس عشر قام ايطالى مشهور يدعى نيكولو دى كونتى ، برحلة الى آسيا وصل فيها حتى سومطرة . وزار بورما حوالى عام ١٤٣٥ وعاد الى أوربا وقد اعتنق الدين الاسلامى وكانت تقاريره هى التى دفعت البرتغاليين الى الذهاب الى ايراوادى عام ١٥١٩ وقد جاءوا كما هى العادة طلبا للتوابل ولكنهم كانوا مستعدين تماما لتأجير الجنود الى تابين شويتى حاكم تونجو الواقعة على بعد حوالى ٥٠ ميلا شمال رانجون الحالية وهكذا تمكن هذا الأمير من قهر جزء كبير من البلد ، وفى عام ١٥٤٦ توج ملكا على بورما . ولم يكن الوقت قد حان بعد لغزو أوربى خطر لأن الهولنديين والبريطانيين ، الذين أقاموا مراكز تجارية فى بورما عام ١٦١٩ رحلوا فى القرن نفسه . بدأ الصدام الحقيقى بين أوربا وآسيا فيما

يتعلق ببورما فى القرن التاسع عشر . فقد عملت بورما أثناء القرن الثامن عشر على تحرير نفسها من سيطرة الصين . وتمكنت بعد جهد من الوصول بحدودها الى ما هى عليه الآن ، عندما ضم الملك باجيداو (١٨١٩ـ١٨٣٧) مانيبور وآسام على حدود ممتلكات شركة الهند الشرقية فى البنغال الى بلاده وقد هزم البورميون بمعداتهم القديمة فى ثلاثة حروب أمام جيش بريطانى حديث التسلح وفقدوا آسام وأراكان وشاطىء تيناسيريم فى الحرب البورمية الاولى (١٨٢٤ـ١٨٢٦) ثم فقدوا رانجون فى الثانية (١٨٥٢ـ١٨٥٣) ، وفى الثالثة «١٨٨٥» استسلمت بورما وأصبحت بعد ذلك بسنة واحدة جزءا من الهند البريطانية ، وظلت كذلك حتى عام ١٩٣٧ ، حينما أصبحت مستعمرة تابعة للتاج مع درجة من الحكم الذاتى .

هكذا كانت بورما مستعمرة بريطانية ــ وفى الحقيقة مستعمرة هندية بريطانية ــ اذ كان الهنود بالنسبة للبورميين ، مثلما كان الصينيون لأهل تايلاند ، كانت الغابات الفنية فى أيد بريطانية وكانت أخشاب الساج تقطع وتنشر بأيدى عمال هنود ، وتشحن الى الخارج على سفن بريطانية وكانت مناجم الرصاص والزنك قد صارت بالفعل ذات أهمية دولية ولكن عمال المناجم كانوا هنودا والفنيون هنودا أو بريطانيين والمديرون بريطانيين ، وكان أصحاب الموانىء والسكك الحديدية والسفن يقيمون فى لندن وكلكتا . وكان عدد الهنود فى رانجون أكثر من عدد البورميين وكان رأس المال البريطانى هو الذى يشغل المصانع القليلة ومطاحن الأرز ، ومناشر الخشب ..

وظل البورمى فلاحا ، وفلاحا صغيرا . وكان ثلثا الأراضى الصالحة للزراعة حقولا للارز تنتج مابين ٤٪ و٥٪ من المحصول العالمى وتعتبر بورما اكبر الدول المصدرة للأرز ثم ــ وهذا مايدعو الى الضجر ، كان البريطانيون والصينيون والهنود باعتبارهم ملاك الأرض ، ورجال البنوك ، والتجار هم الذين يجنون الأرباح الطائلة ، كذلك

لم يكن موظفو الحكومة من الوطنيين ولم يعد للنبلاء أهمية تذكر ، وكان هناك عدد قليل من المثقفين الوطنيين ، ولهذا نمت الحركة الوطنية ببطء شديد خاصة أن الحركة القومية مزقتها الاتجاهات المعادية للصينيين والمعادية للهنود غير أن الحرب الروسية اليابانية وانتشار وباء الطاعون عام ١٩٠٥ قد ساعد على ايقاظ البلاد من سباتها ، ففى ١٩٠٧ أنشىء معهد طبى ، سنة ١٩٠٦ تكونت منظمة الشباب البوذى ، على نمط جمعية الشبان المسيحيين وكما حدث فى حالة ساريكات اسلام فى اندونيسيا فان الحركة الوطنية قد اشتملت على كل عناصر القوة وكل عناصر الضعف نظرا لغلبة الصبغة الدينية عليها وهنا أيضا ، كان لابد من هزة قبل أن تصبح القومية عنصرا من عناصر الحركة الاستقلالية ــ مثلما حدث فى الهند الصينية ــ وهنا ايضا قامت الحرب العالمية الأولى بهذه الهزة .

٧

أفغانستان ، ايران

تناولنا حتى الآن المنطقة الداخلية فى آسيا أى المنطقة التى تضم الدول الزراعية المكتظة بالسكان • المنطقة التى ينمو فيها الأرز •• والآن نتحول الى المنطقة الخارجية فى الفترة من ١٩٠٠–١٩١٤ • لنتناول أولا أفغانستان وايران وستظهر الدولة الأخيرة وقد قامت بصفة أساسية بدور الدولة الحاجزة بين الامبراطورية البريطانية فى الهند وبين الامبراطورية الروسية فى أواسط آسيا • وهى أيضا إحدى مناطق الحضارة القديمة فى التاريخ •

ليس هناك الكثير لنقوله عن أفغانستان – فلم تكن الحركة الوطنية فى أفغانستان قد بدأت فى الفترة مابين ١٩٠٠–١٩١٤ – لولا الحقيقة الواقعة وهى أن هذا البلد يمثل نموذجا واضحا للطريقة التي استخدمت بها الدول الكبرى البلدان الآسيوية لتحقيق أغراضها ، هذه البلدان التى جذبت الدول الكبرى للتدخل اما بسبب موقعها الجغرافى أو بسبب مصادرها المعدنية ، مثل كوريا ، تايلاند ، العراق الغنية بالبترول أو البلاد الصغيرة ومنها على سبيل المثال قبرص ، وفورموزا • لقد كانت أفغانستان فى موقع دعا جيرانها للتآمر عليها • ففى الغرب والجنوب تحيط بها باكستان الحالية – أو الهند البريطانية حينئذ – وفى الغرب ايران وفي الشمال آسيا الوسطى الروسية ولم يكن فى البلاد الشىء الكثير الذى يمكن أن تحصل عليه بريطانيا أو روسيا •

وعلى الرغم من أن مساحتها كبيرة نسبيا ، اذ تبلغ حوالى ٢٥٠

ألف ميل مربع ــ فان أغلبها جبال قاحلة ، ومنحدرات وصحراوات والأرض الصالحة للزراعة فيها لاتزيد عن ٥٪ من مجموع مساحتها الكلية وتقع شمال هندو- كوش ، فى اتجاه أموداريا وفى وديان الأنهار الأخرى • كانت غير كثيفة بالسكان الذين يتراوح عددهم حينذاك بين ١١ مليونا و ١٢ مليون نسمة ، وكان الرعاة الرحل الذين يؤلفون جزءا كبيرا من السكان يعيشون فى الخيام ، ويعيش بعضهم فى الكهوف والبعض الآخر فى أكواخ دون أى وسيلة من وسائل الراحة • ولم تكن أهمية أفغانستان السياسية فى القرن التاسع عشر راجعة قطعا الى الذرة ، والبلح ، والصوف ، أو القطن ولكنها ترجع الى مطامع كل من روسيا وبريطانيا .

خضعت أفغانستان خلال قرون طويلة حتى القرن الثامن عشر مرة لحكم الأمراء الهنود ، ومرة أخرى للفرس ، وثالثة لمملكة بخارى (جمهوريات تركستان، أزبكستان، تاجيستان (Tadjikstan) السوفييتية الحالية) • وحوالى عام ٨٠٠ ميلادية اعتنق الأفغانيون الاسلام ، ويتكون حوالى ٩٠٪ من السكان اليوم من طائفة السنيين ، ١٠٪ من الشيعة • ويعمل الأخيرون أطباء ، وتجارا ومثقفين فى المدن • وفى بداية القرن الثامن عشر ظهرت حركة تعمل من أجل الاستقلال • نشأت فى كانداهار انتهت بالنصر بفضل تدهور الامبراطوريات التى كانت تحكم أفغانستان حينذاك • ففى عام ١٧٥٠ أخذ الأفغانيون لاهور ، ودلهى على بعد يزيد عن ٦٠٠ ميل من كابول ، وحوالى ١٧٧٥ بلغت أفغانستان أقصى حدودها ممتدة من شرق فارس فى الغرب الى دلهى الواقعة على نهر جانجز فى الشرق • وفى مطلع القرن التاسع عشر بدأت الحدود تتقلص • وفى عام ١٨٣٥ ـ حينما حمل دوست (Dost) محمد زعيم قبيلة باراكزاى لقب أمير أفغانستان ، كانت حدود المملكة قد وصلت الى ما هى عليه الآن وظلت أسرة باراكزاى فى الحكم حتى عام ١٩٢٩ ، وتمكنت من ادارة دفة البلاد بنجاح وسط الصخرتين وهما القوتان العسكريتان لروسيا وبريطانيا •

في عهد دوست محمد قامت فارس سنة ١٨٣٧ بغزو أفغانستان بتحريض من روسيا ، بقصد وقف نفوذ شركة الهند الشرقيـــة المتزايد • ولكن النتيجة لم تكن مثلمـــا توقعت سان بطرسبرج ، اذ قامت بريطانيا باشعال الحرب الافغانية الأولى (١٨٣٩-١٨٤٢) وخلع دوست محمد عن عرشه وأخذ الى الهند • وفي عهـد شاه سوجاه (Sujah) دعم النفوذ البريطاني باحتلال حقيقي ثم قامت ثورة في عام ١٨٤١ وقتل أثنان من المبعوثين الدبلوماسيين البريطانيين واضطرت بريطانيا الى الجلاء عن كابول ، ودمر الجيش المنسحب في ممر خيبر • وقتل شاه سوجاه وتمكن دوست محمد من العودة وأدرك أن من الصواب ألا يسيء الى البريطانيين كثيرا ، ولهذا وقع معهـم في عام ١٨٥٥ معـاهدة في بيشـاور وجاء ذلك في الوقت المناسب ، حيث استولى الفرس في الشتاء التالي على هيرات أهم مدينة على الاطلاق في غرب أفغانستان • وهنا أعلنت بريطانيـــا الحرب على فارس •

وفي معاهدة باريس عـام ١٨٥٧ اعترفت ايران باســـتقلال أفغانستان • وحددت الحدود بين البلدين بصفة نهائية عام ١٨٧٢ •• وتدخلت فرنسا هي الأخرى ولكن دون غرض محدد فاستغلت إستقلال سلطان مســـقط المزعوم وأعدت سفنا رفعت عليها علم السلطان ، وزودتها بالأسلحة والذخائر ثم أرسلتها الى بلوخستان لمساعدة الايرانيين •

ومع أن الحادث ليس له في حد ذاته اى مغزى • الا اننا أوردناه لايضاح الطرق التي استخدمتها الدول الكبرى في علاقتها بعضها مع بعض في ذلك الوقت بينما كانت تعيش معا في سلام وصداقة

نصل الآن الى الوقت الذى تثير فيه الموقف التاريخي دولتان تحقد كل منهما على الأخرى • وقع هـــذا الموقف في كوريا عام ١٨٩٥ ، وفي تايلاند عام ١٨٩٣ ■

ولقد وصل الى كابول عـــام ١٧٨٨ عدد من الضـــباط الروس وتمكنوا من الحصـــول على توقيع الأمير على معـــاهدة للمساعدة المتبـــادلة .. ولم تكد البعثة الروسية تغادر كابول حتى بدأت بريطانيا الحرب الأفغانية الثانية (١٨٧٨-١٨٩٣) التى انتهت باحتلال بريطانيا ثلاثة أرباع أفغانستان وحصلت بريطانيا بمقتضى معاهدة جانداماك على ممر خيبر .. الطريق الوحيد ذى الأهمية العسكرية الذى يصل أفغانستان بالهنـــد البريطانية . وحصل أمير أفغانستان على معونة مالية سنوية قدرها ٦٠ ألف جنيه استرلينى مقابل الموافقة على ترك مباشرة علاقاته الدوليـــة لحكومة الهند وكانت أفغانستان حينذاك قفرا تعيش فى ظـــلال العصور الوسطى ولم تكن بحال من الأحوال دولة حديثة ولم تكن للأمير أى سلطة على سكان التلال الشاردين . ولقد اشـــتعلت المقاومة مرة أخرى ضد بريطانيا بقيادة رجال الدين (الملة) وكان لابد من استخدام قوات الهند البريطانية لاخمادها . وفى الوقت نفسه كانت روسيا قد ضاعفت عدد جنودها القوزاق على الحدود . وتبنى الأمير عبد الرحمن (١٨٨٠-١٩٠١) سياسة توازن القوى بين الدب فى أموديارا وبين الأسد فى نهر الاندوس . كما ارسى دعائم تمدين البلاد بتوحيدها بالقوة . وقد لجأ - كما اخبرنا فى سيرة حياته التى كتبها بنفسه - الى تقوية الطبقة المتوسطة بقدر الامكان .

واذا بحثنا عن مثل ، لقدرة دولة جبلية ليست ذات اهمية بالنسبة لأحد على أن ترفع درجة حرارة السياسة الدولية الى نقطة الغليان ، فاننا نجد ذلك فى أفغانستان حين وقع حادث بندجة . ففى عام ١٨٨٥ اشتبكت روسيا وأفغانستان فى قتال حول الحدود الشمالية التى لم تكن قد تجددت بعد . ونتج عن الحادث أزمـة خطيرة بين بريطانيا وروسيا احتلت بريطانيا اثناءها احد موانى كوريا لاستخدامه قاعدة للهجوم على فلاديفستوك . ولكن النزاع

لم يتطور الىَ حرب غير أن فكرة جعل أفغانستان دولة حاجزة قفزت ثانية الى المقدمة • وفى عام ١٨٩٥ عقد اتفاق بشأن الحدود بين أفغانستان وهضاب بامير فى روسيا • ولا تزال النتيجة ظاهرة على الخريطة فان افغانستان تمتلك منطقة جرداء فى الشمال الشرقى عرضها ٣١ ميلا وطولها ١٨٥ ميلا وقد فصلت المنطقة بامير عن كشمير (جزء من الهند البريطانية حينئذ) •

تغلغلت الأفكار الاوروبيه فى افغانســـــتان فى عهد حكومة ضعيفة هى حكومة حبيب الله (١٩٠١ ـ ١٩١٩) الذى كان يفضل الأخذ بنصائح حريمه،ورجال الدين عن الاعتماد على تفكيره الخاص المحدود . ولكن النتائج المـــادية لم تسفر عن شئ كثير فلم ينشأ فى عهده سوى مصنعين وبعض المدارس.غيران ارتباطات افغانستان مع بريطانيا التى وضعت حدود أفغانستان تحت حمايتها وأخضعت علاقات أفغانستان الدولية ازدادت قوة وازدادت المعونة للأمير. الا أن الصورة تغيرت عام ١٩٠٧ واصبحت بريطانيا التى كانت تخشى من قبل فرنسا ثم روسيا فيما بعد ـ تشعر حينذاك بخطر التوسع الألمانى فى اســـيا (مشروع سكة حديد بغداد مثلا) • وفى عام ١٩٠٤ عقدت بريطانيا وفرنســــا الاتفاق الودى كرد فعل للسياسة الألمانية ، وأعقبه الاتفاق الودى بين بريطانيا وروسيا عام ١٩٠٧ ، وهو يتعلق خاصة بايران والتبت ـ ولكنه كان يتعلق أيضا بأفغانستان اذ تعهدت روسيا بعدم التدخل فى أفغانستان • وهكذا حين نشبت الحرب العالمية الاولى كانت أفغانستان مستعمرة خاضعة للنفوذ البريطانى من جميع الوجوه ولم تكن قد استيقظت بعد

***

ايران التى ظلت تسمى فارس حتى عام ١٩٣٥ ، دولة أكثر اهمية من افغانستان - فهناك اولا وقبل كل شئ توسعها السياسى فى العصور القديمة ، وليس أقل من ذلك شأنا مكانتها الكبرى فى

تاريخ الحضارة الانسانية . ويكفى ان نذكر اسمى زرادشت وعمر الخيام اللذين اعطياها شهرة عالمية ، ومساحة ايران اليوم — الارض التى كانت قلب هذه الحضارة تبلغ ٦٢٨ ألف ميل مربع . اى أكبر من مساحة اسبانيا وفرنسا والمانيا مجتمعة . يبلغ عدد سكانهاطبقا لاحصاء رسمىحوالى١٨مليوننسمة. يتألف حوالى٧٠٪ منأراضيها منصحراوات وسفوح هى غالباملحةتستطيع الأغناموحدها أنترعى فيها وتنمو الغابات ـ خاصة غابات الصنوبر ـ فى التلال الرطيبة جنوبى بحر قزوين • وتبلغ مساحة الأرض الصالحة للزراعة ٥ر٦٪ من المساحات الكلية . وهى لا تعتمد فى معظمها على الرى وتوجد فى وديان الأنهار القليلة وفىالمنحدرات انخفضة للتلال. ولكن ماهو أكثر اهمية من البلح ، التين ، واللوز وأخطر سياسيا من القمح والقطن والبرتقال هومايرقد تحت الأرضـالبترول ، والحق اناسم ايران مرادف للبترول • فهى تنتج ٦٪ من الانتاج العالمى للبترول وتجىء من حيث الانتاج بعد الولايات المتحدة ، فنزويلا وروسيا السوفيتية •

ففى عام ١٩٠١ حصل وليام نوكس دارسى النيوزيلاندى على امتياز مدته ستون عاما لاستغلال حقول البترول فى منطقة تبلغ أربعة أخماس ايران مقابل ٢٠ ألف جنيه استرلينى ، ١٦٪ من الأرباح وقد اكتشف دارسى عام ١٩٠٨ حقل ماشيدى سليمان بين أصفهان ونهر الفرات بعد حفر آبار كثيرة لم يعثر بها على شىء •

وتكونت شركة البترول الانجلو ـ فارسية سنة ١٩٠٩ نتيجة لهذا الاكتشاف • وهى الشركة التى أطلق عليها فيما بعد الشركة الانجلوايرانية ، والتى أممتها ايران عام ١٩٥١ • وطبقا للاتفاق الانجليزى ـ الروسى عام ١٩٠٧ كانت ايران قد قسمت الى منطقتى نفوذ النصف الشمالى منها روسى ، والجنوبى بريطانى •

وقد واجهت ايران الغزو الأجنبى بصورة أقـوى مما فعلت افغانستان • أما لماذا حدث هذا فيمكن فهمه بسهولة اذا القينـا

نظرة على تاريخها • فانه بعيدا ، بعيدا جدا ، فى فجر التاريخ (من ٣٠٠٠ - ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد) • ظهرت حضارة متقـــدمة فى سوساويبرسيبوليس فى جنوب غربى ايران الحاليـــة . ولا بد أن الشعوب التى صنعت تلك الحضارة - وقد أوضحت الحفـريات المدى الذى وصلت اليه هذه الحضارة - تعرضت سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد لهجوم شعب ينتمى الى الجماعات التى تتحـدث اللغـــات الآرية (Indo-Germanic) التى يتكون منها أساسا الشـــعب الايرانى اليوم وتوســعت الدولة الجديدة سريعـا .. واصبحت الامبراطورية الفارسية حوالى عام ٥٥٠ قبل الميلاد واحدة من أعظم الامبراطوريات فى العالم ، وامتــدت حـــدودها من برقة ومصر والبوسفور الى نهر الاندوس وبحر أرال ولم تـــكن الامبراطورية الفارسية أكثر من غيرها خلودا فبعد قرنين من الزمان ضـــعفت الامبراطورية ثم سقطت ضحية للاسكندر الأكبر الذى هـزم ايران - قلب الامبراطورية عام ٣٣١ قبل الميلاد - وكان هو أول أوروبى فيما نعرف يصل الى نهر الاندوس • واذا كانت فارس قد تخلصت من الغزو الأوربى - اقامت سورا لم تستطع جيوش روما اختراقه - فانها لم تعد قط الى ســـابق قوتها العسكرية والســياسية • غير أنها عادت مرة أخرى واحة للحضارة خلال الفترة الطويلة بعد الفتح العربى سنة ١٢٥٨ م وهى الفترة التى اعتنقت فيها ايران الاسلام وكان الحكام الأجانب الذين جاءوا بعـــد ذلك هم المغول الذين أطاحوا بالخلافة فى بغداد عام ١٢٥٨ واستمر حكمهم لفارس وثلاثة أرباع آسيا حتى القرن الرابع عشر • وحينما اســـتعادت فارس حريتها قامت بتوحيدها أسرة السيفين (Seffyeds) الوطنية « ١٥٠١-١٧٥٦» التى عملت على تدعيم المذهب الشيعى الذى ساد فى فارس واذ وجدت فارس نفسها محصـــورة بين الامبراطورية التركية وأفغانستان لم تتمكن من منع تقلص حدودها رغما عنهـا حتى وصلت الى ماهى عليه اليوم • فقد كانت القوقاز وســـهول

تركستان فى الشمال هى وحدها مجال التحرك المحتمل ولكن هذا الاحتمال حرمت منه فارس بوصول القوازق الروس اليها فى القرن التاسع عشر وفى عام ١٨١٢ ضمت روسيا اليها جمهورية أذربيجان وباكو الحالية • ولم تستطع أسرة كاجار «١٧٩٤-١٩٢٥» صد هذا التوسع الروسى • وفى عام ١٨٥٠ ظهر الفرسان الروس فى سهل سرداريا غرب بحر أورال - ولم يوقف استمرار التوسع الروسى سوى تهديدات بريطانيا • وقد أخضعت روسيا سنة ١٨٨٥ جنوب تركستان بعدما كانت رسميا جزءا من فارس •

وحتى مع احترام الحدود رسميا حينذاك ، فان امتيازات الروس والبريطانيين داخل هذه الحدود أخذت تزداد تدريجا • ففى عام ١٨٩٦ - فى عهد الشاه مظفر الدين - ظهر هذا بوضوح لأن حاجة ايران للمال دفعتها الى تسليم ادارة الجمارك والسكك الحديدية ، وامتيازات البترول وانتاج الملح والطباق الى الأجانب ، واذ كان البريطانيون فى ذلك الوقت ضعافا نسبيا بعد حرب البوير فقد ازداد النفوذ الروسى •

فى عام ١٩٠٥ اشتعلت الثورة ضد حكم الشاه الضعيف وكان زعماء الثورة هم رجال الدين « الملة » والتجار ، الذين تأثروا بأفكار جمال الدين الأفغانى الداعية للوحدة الاسلامية وكان الأفغانى مفكرا فارسيا وداعية عظيما أصدر مجلة عربية فى باريس وكان له نفوذ كبير فى الحياة الفكرية للبلاد الاسلامية وقد كانت الثورة موجهة مباشرة ضد فساد الوزير عين الدولة الذى اعتبره الشعب مسئولا عن تزايد الضغط الأجنبى• ولقد تبنى الجناح الأيسر من الثوار ما نسميه بالميول المتحررة وتشبها بحركة تركيا الفتاة اطلق هؤلاء التحرريون على حركتهم اسم شباب فارس واضطهدتهم الحكومة الا أن الغرب مال الى مساعدة الاتجاهات التحررية - كما رأينا فى تركيا - بتأثير التعاطف الديمقراطى من جانب ، وبتأثير ما ساد من اعتقاد - على حق - بأن من الأيسر التعامل مع الأنظمة التحررية

الحديثة عن التعامل مع الانظمة الرجعية الفاسدة • وهكذا كان الحال فى فارس حيث كانت بريطانيـــا تأمل صد النفـوذ الروسى المتزايد ، بمساعدة التحرريين • ولم تكن هذه الاتجاهات لتلقى سوى معارضة طفيفة نظرا لأن القومية الآسيوية لم تدرك ان ادخـــال الحضارة الحقيقية فى بلادها لايتيسر الا بانهاء الوضع الاستعمارى ـ او شبه الاستعمارى كماكان الحال فى ايران ـ أى عندما يتحقق الاستقلال الكامل • ولقد لجأ الآلاف من الشبان الفارسـيين الى حدائق السفارات الأوروبية ـ هربا من اضطهاد البوليس ، وخاصة الى السفارة البريطانية حيث يستطيعون أن يكونوا فى أمان على الأقل فى ذلك الوقت حيث لم تكن السيادة الفارسية تمتد الى هذا المدى البعيد •

غير ان الحركة ـ التى شجعها الأوربيون ـ بلغت من القوة حدا اذعن الشاه معه لمطالب الثوار الاســاسية ـ كما فعل ســلطان تركيا حينما حل عليه الدور ـ وطرد الوزير المكروه عام ١٩٠٦ • وأقدم الشاه على أكبر تنازل من جانبه وهو الاعتراف بحق الأمة فى قيام برلمان وكان هذا ثانى برلمان آسيوى • وكان الأول فى طوكيو • أما البرلمان التركى ـ فكان فى القســطنطينية أى فى أوروبا • واجتمع البرلمان الأول (المجلس) فى فارس فى اكتوبر ، وأصـدر دستورا من النوع المألوف ، كما فعل برلمانا اليابان وتركيا • وقد أساء هذا كله الشاه الى حد أنه مات فى آخر ديسمبر بعد توقيعه على الدستور ببضعة أيام •

ولم يكن خليفته محمد على « ١٩٠٧ـ١٩٠٩ » أشد رضاء عن هذه الأعباء التى جلبتها حركة التجديد • فقد كان التنظيم الاقطاعى للمجتمع يتيح للنبلاء امتيازات متعددة • ولهذا فليس مما يدعو للدهشة أنه على الرغم من أنهم كانوا يؤيدون الحركة المعارضة للأخذ بالأنظمة الغربية فانهم لم يقتنعوا بالفكرة القائلة بأن ابعاد النفـوذ الغربى انما يتحقق عن طريق الأخذ بالافكار الغربية حتى وان كانت

قد ظهرت حالات تبرهن على صحة ذلك كما شوهد فى اليابان والصين خلال المائة يوم وفى تايلاند. ولقد يكون من العسير أن نفكر نحن أنفسنا بهذه المفاهيم التى تنتمى الى العصور الوسطى ولكن وضع النبلاء الاقطاعيين قام فى أوقات مبكرة على حقهم الذى لانزاع فيه فى كل مايمتلكه أتباعهم فيما يجاوز مايحقق الاحتياجات الأولية لهؤلاء لاتباع وعلى هذا كان محصول الفلاح ملكا له ، ولكن اذا أنتج فائضا فى المحصول ، فان الزيادة كانت حقا للحاكم . ويلحق المصير نفسه ببقرة درارة أو زوجة فائقة الجمال . وليس من قبيل المصادفة أن كلمة واحدة فى لغة أهل جاوة تعبر عن ثلاثة معان : اطلب ، خذ ، انهب .

وكان الحاكم الذى سلك هذا السبيل مازال فى نظر الشعب حاكما عادلا لاطاغية ولا مستبدا ولم يصبح مستبدا الا حينما صار يأخذ من رعاياه الضروريات الأساسية الى المدى الذى وصل فيه الى الحكم باعدام رجل برىء للحصول على أملاكه. ولم يكن لهذا الامعان فى الاستبداد الا جواب واحد ـ التآمر والاغتيال ، ومثل هذه الحقوق يصدمنا الآن بشذوذه . غير اننا اذا فحصنا نظام الضرائب فى أى دولة حديثة لوجدنا الفرق بين مايحدث الآن وماكان يحدث حينذاك طفيفا نسبيا الا ان هناك بالطبع هذا الفرق فعند الحاكم الاقطاعى ليس هناك تفريق بين ثروته الخاصة والأموال العامة ، بينما وزير المالية العضو فى برلمان ديموقراطى حقيقى لا يمكن أن يثرى بفرض الضرائب الباهظة اذ أن الضرائب تفرض على الجميع لصالح المجموع ، أو على اقل تقدير تفرض لما يراه الوزير والحكومة والبرلمان فى صالح المجموع .

ولقد أدار الوزير الايرانى ـ اتابك الأعظم (Atabeg-i-Azam) الحكم بالروح الرجعية للشاه تماما . وكان « شباب ايران » هم القوة الوحيدة التى اظهرت قدراً أكبر من النشاط . واغتيل أتابك الأعظم فاضطر الشاه للاستسلام للوطنيين . وتشكلت وزارة حرة

برئاسة ناصر الملك عام ١٩٠٧ وكان تشكيلها بمثابة ضربة جديدة للنظام القديم ٠

وفى أغسطس من العـــام نفسه ذاعت محتويات المعـــاهدة الانجليزية ـ الروسية التىقسمت ايران بمقتضاها اقتصاديا٠ وكان لذلك وقع سيء على الفارسيين ، أو على الأقل المستنيرين منهمالذين لم تخدعهم الفقرة الواردة فى المعاهدة عن مبـدأ استقلال ايران وسلامة أراضيها ٠

وفى منتصف ديسمبر اشتدت وطأة المعارضة على الشاه فدبر انقلابا وألقى القبض على رئيس الوزارة الحر غير أن ثورة الشـعب الغاضب إنتشرت فى كل مكان ، وكان على الشاه أن يحنى رأسه مرة أخرى ٠ وفى آخر يونية ١٩٠٨ أعاد محاولته بمســاعدة حراب الروس هذه المرة ٠٠ فان القيصر الذى كان عليه أن يعانى سـنة ١٩٠٥من الثورة فىروسيا لميكن نصيرا للدساتير ، أوالديموقراطية ٠٠ ولقد قام القوزاق بتحطيم المقاومة فى كل مكان وقتل كثير من الأحرار ٠٠ وحل البرلمان ٠ وأعلنت حالة الطوارىء فى طهران ٠٠ الا أن تبريز ظلت المكان الوحيد الذى لم يستطع جنود القوزاق وجنود الشاه قهره ٠

ففى تلك المدينة المنيعة فى شمال ايران ثار جميع السكان عندما سمعوا بقيام الثورة فى تركيا (يوليه ١٩٠٨) ٠٠ وهنا يمكننـــا رؤية الفرق بين ثورة من عمل جماعات معينة ، وبين ثورة مؤيدة من جانب الشعب كله كما هوالحال فىايران، فانه فىمواجهة الجدار الحجرى لا يستطيع أشد الطغاة أن يصنع شيئا ٠٠ ولقـــد ظلت المدينة الثائرة مستعصية حتى فبراير ١٩٠٩ حين أعاد الجيش المدينة الى سلطة الشاه بعد مذبحة رهيبة ٠٠ الا أن الثورة ظلت صامدة فى جزء آخر من البلاد على الرغم من الضغط الشديد الذى تعرضت له ٠٠ ففى يونية ١٩٠٩ زحف عـــلى قولى خان من قبيلة

بختيارى ، على طهران وأعاد العمل بالدستور ، وأخيرا نفى الشاه الذى يعطى مثلا مؤلما لما يمكن أن يرتكبه الحكام الرجعيون المهددون بالثو.ة من خيانة لبلادهم باستدعاء الأجانب للقيام بعملهم القذر .

خلف السلطان احمد (١٩٠٩-١٩٢٥) ابن الشاه المنفى أباه . وكان لا يزال طفلا ، وخضع فى بداية حكمه لنفوذ الوطنيين ، ولكنه أصبح على الأقل فيما بعد ملكا شاذ الاطوار . وأطلق عليـــه لقب الشاه التاجر . لأنه قام أثناء المجاعة بتخزين الحبوب وغيرها من المواد الغذائية ، وباعها للشعب بأسعار مرتفعة .. حقيقـــة ان التجديد سار بمساعدة المستشارين الأجانب الا أنه سار بخطوات واسعة . وخول البرلمان و. مورجان شوستر الأمريكى سـلطات دكتاتورية لتنظيم المالية الوطنية والتحقيق فى الضرائب . وحدثت النتيجة المنطقية ، فقد واجهته معارضة الروس الذين شجعوا الشاه السابق - وكان قد فر الى روسيا بعد عزله - للقيام بمحـــاولة لاستعادة سلطاته . فنزل فى استراباد على شـــاطىء بحر قزوين الجنوبى ولكن قوات الحكومة حاصرته . وعاودت قوات القيصر غزو ايران حينمـــا رفض « المجلس » (البرلمان) انذارين روســيين يطلبان طرد شــــوستر وقد حـــدث ذلك عام ١٩١١ وهو عام الاضطرابات . ولم يكن فى مقدرة ايران المقهورة - التى لم تأخـذ من الحضارة الا القدر القليل - بذل مقـــاومة فعالة ، كانت من الناحيــة العملية ضـعيفة أمام الأجانب من الناحيتين الفـكرية والعسكرية . وقد الهبت الحرب العالمية الاولى الحركة الوطنيـــة لتقرر مصير فارس .

٨

(الدول العربية)

ظهرت بعد انهيار الامبراطورية التركية فى الحرب العالمية الأولى دول جديدة لا بد ان نتناولها الآن ، وهى ما يطلق عليه الدول العربية . شبه الجزيرة العربية وفلسطين وسوريا والمنطقة التى تشمل فى الوقت الحاضر العراق والاردن وفلسطين .

ولابد ان هناك قليلا من القراء لايعرفون لماذا سميت هذه البلاد بالاراضى العربية . ان الغالبية العظمى من سكانها عرب مسلمون بقوا فيها بعد تصفية الامبراطورية العربية التى عاشوا فى ظلها قرونا طويلة . ويميل الأوروبيون أحيانا الى قصر استخدام كلمة العرب على الشعوب القاطنة فى واحات الصحارى بشبه الجزيرة العربية ولكن العرب خرجوا من شبه الجزيرة العربية وفتحوا سوريا بعد وفاة النبى محمد بعام واحد (٦٣٢ ميلادية) وتدفقوا على مصر وبلاد ما بين النهرين ، وفى عام ٧٠٠ م انتهوا من اقامة امبراطورية تمتد من بحر أورال ونهر الهندوس فى الشرق الى مراكش ومضيق جبل طارق على شاطىء الاطلنطى فى الغرب . وفى عام ٧١١ م نزلوا فى جبل طارق واقاموا قلعة على الصخرة الشهيرة التى أخذت اسمها من قائد البربر طارق بن زياد وهزم العرب أسبانيا والبرتغال . ولم يتوقف تقدم المسلمين فى الغرب حتى ٧٣٢ م عندما تمكن فرسان شارل مارتل من صدهم عند بواتييه وقبل ذلك بوقت قصير عام ١٧١٧ م صدتهم استحكامات القسطنطينية الدفاعية الناجحة فى الشرق . ولكن اسبانيا لم تعد الى حظيرة أوروبا فى القرن الخامس عشر وضم مابقى من الامبراطورية فى شمال افريقيا الى تركيا مع

بقية الاراضى العربية ولكن الحضارة العربية الاسلامية كان لديها الوقت الكافى الذى مكنها من الانتشار والنفاذ فى جميع الدول المغلوبة

وفى الفترة من ١٩٠٠ـ١٩١٤ كان العالم العربى كله خاضعا للحكم الأجنبى ، فخضع اولا لحكم السلطان عبـــد الحميد فى القسطنطينية وبعد ذلك (من ١٩٠٨) خضع لحكم تركيا الفتاة التى لم يكن حكمها أكثر رحمة من حكم السلطان • وفى مطلع القرن العشرين مد خط الحجاز الحديدى بين دمشق والمدينة واستغرق انشاؤه الفترة مابين ١٩٠٠ـ١٩٠٨ وقد أقامه المهندسون الألمان ، وكان ذلك علامة من علامات ازدياد التدخل الألمانى فى تركيا وخطوة فى منافسة السياسة البريطانية وقد حصل الالمان على امتياز انشاء الخط الحديدى أثناء زيارة ولهلم الثانى للقسطنطينية والدول العربية عام ١٨٩٨ وفى خلال هذه الزيارة أعلن هذا السياسى الخيالى غير المتزن نفسه حاميا للاسلام . ولم تلق الحكومة التركية اهتماما الى هذه العبارة الفضفاضة واهتمت بالخط الحديدى فى بساطة باعتباره وسيلة لاحكام السيطرة العسكرية على امبراطوريتها وحلقة اتصال فى حالة الحرب بين قناة السويس والبحر الاحمر ـ ولقد ساعد هذا الخط بالفعل ـ دون قصد من أحد فى القسطنطينية ـ على تحرير العرب مثلما فعلت ساحات التدريبات العسكرية الجديدة حيث درب الضباط الألمان قادة الثورة العربية فيما بعد .. وانه ليحدث فى كثير من الاحيان أن يكون لنوايا الناس نتائج مختلفة عمـــا يدبرونه أو يتوقعونه •• وقد يكون للنوايا السيئة نتائج طيبة •• ومن أسف أن العكس صحيح ايضا ..

ففى مطلع عام ١٨٨٠ كانت قد تكونت حركة عربية سرية فى الاقليم التركى الواقع على شاطىء البحر الأبيض فيمـا يسمى الآن لبن وقد سميت حركة بيروت نسبة للمدينة التى ولدت فيها وكان هدفها الأساسى اثارة السكان ضد الحكم التركى البغيض • وردد

الحكومة التركيـــة على ذلك بفرض الرقـــابة ، ونشر التجسس والارهاب بصورة أشد وحشية عما كانت من قبل ، خاصـــة وأن الأوروبيين الطامعين كانوا قد سلبوا فى هـــذا الوقت أجزاء من الامبراطورية التركية • فقد أخذ الفرنسيون تونس عام ١٨٨١ ، وأخذ الانجليز مصر عام ١٨٨٢ •

واصبحت الظروف المحيطة بالثوار صعبة ، فانتقلت زعامةحركتهم الى باريس. وهناك تأسست Ligue de la Patrie Arabe عصبة الوطن العربى سنة ١٩٠٤ برئاسة نجيب عزورى ، وهو ماسونى مسلم ، عمل عن طريق المجلة التى أصدرها على نشر الأفـكار التى حاولت تركيا اختلاعها من سوريا • وفى سنة ١٩٠٥ نشر أول كتاب صدر باسم الحركة الوطنية العربية • وكما يمكن أن يتوقع العرب قد بنوا آمالا كبرى على حركة تركيا الفتاة ، وقد أوجدت الانفعالات التى أحاطت بثورة ١٩٠٨ أوهام خيالية عن الصـــداقة العربيـــة العثمانية • وفى هذه الفترة عين حسين بن على « ١٨٥٣ ــ ١٩٣١ » شريفا أكبر فى مكة • ثم أظهرت الأحداث أن الحـــكام الجـــدد فى تركيا ليسوا أقل رجعية من الســلطان ، فيما يتعلق بالقومياتوذلك حينما حاول السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ القيام بثورة مضادة وحينما أصبحت مقاومة الألبـــانيين والأرمنيين تشـــكل خطرا على الدولة وسرعان ما حلت رابطة الاخوة العربية العثمانية ، واستمر اضطهاد العرب ليس بشكل أشد من ذى قبل ولكن النتائج الذى ترتبت عليه كانت أكثر فاعلية •

ويجب ألا ننسى قط أن التجديد يعنى تنظيما أفضل والتنظيم الأفضل يعنى مقدرة أكبر على العمل سواء للخير أو الشر •

ونتيجة لهذه الاحداث كلها ظهر عدد كبير من المنظمات الجديدة اعترفت الدولة ببعضها ، وظلت الأخرى تمارس نشـــاطها سرا •

وكان من أفضلها جمعية عرفت باسم « المنتدى الأدبى » ـ أنشئت فى القسطنطينية سنة ١٩٠٩ ـ وهى ناد ثقافى كان أغلب أعضائه من الطلبة العرب ، وهدفه توثيق العلاقات الثقافية بين البلاد العربية • وقد لعب الطلبة العرب دورا هاما فى جميع الحركات الوطنية فى أوروبا وكذلك فى آسيا • وكان الطلبة العرب ـ زهرة الأمة ـ قد نالوا نسبيا قدرا كبيرا من التعليم ـ وصار فى مقدورهم أن ينظروا الى الأمور نظرة نقدية ولكنهم كانوا أيضا مليئين بالمثل الخيالية مشحونين بذلك النوع من الحماس الذى يميز الاشخاص غير الناضجين والذى يمنعهم من رؤية الوجه الاخر للميدالية •• كذلك اعترفت القسطنطينية بالحزب المعروف باسم حزب اللامركزية الذى تأسس بالقاهرة سنة ١٩١٢ وهو أول منظمة سياسية عربية حقيقية وكان يستهدف اقامة حكم ذاتى محلى •

ولقد تأسست أيضا جمعية سرية هامة عام ١٩٠٩ هى القحطانية وكان هدفها اقامة ملكية ثنائية « وقد اشتقت هذه الفكرة من الملكية الثنائية فى النمسا والمجر حينذاك ، وكانت هذه الجمعية تدعو الى اقامة ملكية تركية ـ عربية تقوم فى نطاقها مملكة عربية مع وجود الملك نفسه مثلما كان فى تركيا • وكان أبرز أعضائها عزيز المصرى وهو واحد من أعظم قواد البلاد العربية وقد شارك فى ثورة ١٩٠٨ بصفته ضابطا فى الجيش التركى • وحينما تولى رئاسة القحطانية اجتذب كثيرا من الضباط الى حركة المقاومة العربية ووصل نشاطه الى علم الحكومة ، فألقت القبض عليه فى فبراير ١٩١٤ وصدر حكم باعدامه ، وكانت النتيجة اضطرابات هائلة اذ قامت مظاهرات كبيرة خاصة فى المدن المصرية تطالب باطلاق سراحه • ولما كان النفوذ الألمانى قد بدأ يظهر حينذاك فى تركيا بصورة مهددة حقا ، فان بريطانيا التى كانت تسعى الى كسب صداقة العرب بأى ثمن تدخلت لمنع تنفيذ حكم الاعدام ، وخفف حكم الاعدام الى السجن خمسة عشر عاما • وعلى أية حال فسرعان ما أفرج عن عزيز المصرى

وعاد الى مصر حيث عين مفتشا عاما للجيش، وحينما اشتعلت الثورة العربية كان عزيز المصرى مرة أخرى قائدها العسكرى ٠

٠٠ وهكذا كان هناك بالفعل فى الفترة من ١٩٠٠ ـ ١٩١٤ حركة وطنية عربية ٠ ولقد وجدت حقا الطبقة العليا العربية وخاصه بين الضباط العرب رغبة عارمة فى الاستقلال ولم يكن من الممكن كبت هده الرغبة ٠٠ ومن الغريب أننا قد نفزع من الحرب ومن الطرق الحربية ، غير أننا حين ندرس التاريخ نضطر الى أن نعترف بأن الحرب تكون فى أكثر الأحيان خطوة نحو التقدم بمعنى أن خطر الحرب الحاد وتهديدها الدائم يعلم الناس تنظيم أنفسهم ٠٠ فان القائد فى الحرب يجد لزاما عليه أن يجرى تقديرا سريعا للفرص المتاحة ، وأن يدرب جنوده ، وأن يكون دائما على أهبة الاستعداد ويعمل فى اللحظة المناسبة ٠ ولقد كان كل نوع من الاختراعات والافكار الجديدة نتيجة مباشرة أو غيرمباشرة لحرب من الحروب ٠ ولكن الحرب الحديثة لم يعد لها هذا الطابع فانه نتيجة لازدياد القوة الانتاجية ، وتسهيلات النقل ، والجهود العلمية ؛ وعدد السكان أصبح المجتمع الراسمالى ، والمجتمع الاشتراكى أيضا معقدا الى حد أصبحت فيه الحاجة ماسة كل يوم لتفجير الطاقات الخامدة ، والأفكار الجديدة فى وقت السلم بعد أن كانت لا تنبعث الا فى وقت الحرب ٠

لقد ظهرت فى الأراضى العربية اذن بوادر حركة تعمل من أجل دولة عربية قومية ، ولكن زعماءها كانوا اما فى الخارج ، أو يمارسون نشاطهم سرا ٠ وكان المراقب للأمور يستطيع أن يرى أن الحكم التركى لايزال متمكنا ، وأن النفوذ الأوربى خاصة النفوذ البريطانى يزداد بدلا من أن يتضاءل ٠ وفى البداية كانت أكثر المناطق التى تجذب اهتمام بريطانيا هى التى تقع فى الشواطىء الجنوبية والشرقية بشبه الجزيرة العربية ، فقد كانت وراء حواجزها الرملية وصحراواتها منطقة بعيدة جدا عن القسطنطينية

ولكنها قريبة جدا من طريق بريطانيا البحرى الى الهنـــد • كان البريطانيون قد استولوا فى عام ١٨٣٩ على عدن ، وهى محطة آمنة لتزويد السفن بالفحم وهى نقطة دخول التجارة من الجنوب الى البحر الأحمر • وكان الاستيلاء عليها أيضا بمثـــابة رد فعل للمطامع التوسعية لحاكم مصر حينـذاك محمـــد على ، الذى كان معـــاديا للبريطانيين كما كان معاديا للأتراك وحدث بعد ذلك فى أواخــر القرن التاسع عشر ، وفى الفترة الأولى من القـــرن العشرين التى يتناولها هذا الجزء من الكتاب، أن أصبحت الأقاليم الساحلية التى يحكمها سلاطين أو مشايخ مستقلون ، محميــات بريطانية ، وهى حضرموت ، ارض الشمس المحرقة التى تعتبر منطقة حماية لعدن ، وعمان ، ومسقط على الخليج الفارسى وكان يسكن جزر البحرين، التى أصبحت الآن غنية بحقول البترول وبمعامل التكرير، وان كانت حينذاك مجرد أرخبيل له أهميته العسكرية نظرا لموقعه الخاص ، صيادو اللؤلؤ ، وزراع الليمون • واخيرا استولت بريطانيا فى نوفمبر ١٩١٤ على الكويت الواقعة مبــاشرة جنوبى وديان دجلة والفرات الخصبة •

ولم يكن هذا اختيارا سيئا، فان الكويت التى تبلغ مساحتها ٥٢٠٠ ميل مربع ، تنتج اليوم ٢ ٪ من الانتاج العالمى للبترول • وكانت قد دارت أثناء ذلك فى وسط شبه الجزيرة العربية معارك قبلية بين اسرتى رشيد وسعود المتنازعتين • وقام عبد العزيز آل سعود ـ الذى وحد الجزيرة العربية تحت حكمه فيما بعد ـ بطرد الحامية التركية من اقليم الاحساء الساحلى جنوبى الكويت . بينمـا ظل النفوذ التركى يتزايد فى شـمر التى يحكمها الرشيديون . وفى الحرب العالمية الاولى اتيحت فرصة رائعـة لابن سعود وقد أحسن استغلالها •

ولكن جزء الامبراطورية التركية الذى يتطلب دراسة دقيقة لما حدث فى هذه الفترة هو فلسطين وفلسطين تشبه الى حد كبير

غيرها من الأقاليم ، فهى بالمثل صخرية وجرداء . ولكن اراضيها هى التى اتخذت مسرحا لمحاولة تأسيس الدولة اليهودية. حين تبدأ فترتنا عام ١٩٠٠ ، نجد أن المهاجرين اليهـود قد بدأوا يتدفقون اليها ، خاصة من أوربا الشرقية ، من أكرانيـا ، وبولنـدا ، ورومانيا ، حيث وجد عداء عنيف لليهود ، ولكنهم جاءوا أيضا من أسبانيا ، ومراكش ، وحلب ، وبغداد ، وجورجيـا ، واليمن ، وايران ، بل حتى من تركستان والهند واستوطنوا بادىء الأمر فى المدن : القدس ، وحيفا ، ويافا ، ثم أخذوا يتدفقون الى الريف فيما بعد ، وارتفع عدد السكان اليهود من حوالى ٨٠٠٠ شخص لا غير عام ١٨٠٠ الى ٨٥ ألف فى ١٩١٤ . أى أصبحوا يؤلفون من ١٣ ـ ١٤ ٪ من مجموع السكان ، مقـابل ما يزيد قليـلا عن ٨ ٪ عام ١٨٠٠ .

فى هذا الوقت كانت فلسطين أرضا عربية ، جزءا من ممالك عربية أول الأمر ، ثم اقليما تركيا فيما بعد .

ويرجع تاريخ بدء خطط هجرة اليهود الى فلسطين الى القرن السادس عشر . ولكن حدثا وقع فى فرنسا فى القرن التاسع عشر هو الذى أدى بصفة غير مباشرة الى مولد فكرة الدولة اليهودية كان ذلك هو قضية دريفوس المشهورة . ففى ١٥ أكتوبر ١٨٩٤ ألقى القبض على دريفوس الضـابط اليهودى بالجيش الفرنسى ووجهت اليه تهمـة الخيانة لافشاء الأسرار العسكرية الى الألمان . وفى ديسمبر أدانته محكمة عسكرية وحكمت عليه بالنفى الى جزيرة الشيطان على شـاطىء غيـانا الفرنسية . وانقسمت فرنسا الى فريقين ، احدهمـا يمينى اسـتولى عليه عـداء عنيف لليهود ، والآخر يسـارى وقف الى جـانبهم بحمـاس . وكانت المقـالة التى كتبها الـكاتب اميل زولا بعنوان « انى أتهم » فى صحيفة « لورور » التى يصدرها كليمنصو هى التى كشفت مكائد قيـادة الجيش الفرنسى ، وجعلت قضية دريفوس قضية العصر حينذاك ،

ويمكن أن يضاف الى ذلك أنه فى عام ١٩٠٦ نقض الحكم وأعيد دريفوس الى الجيش الفرنسى برتبة ماجور ٠

فماذا كانت صلة هذا بمستقبل فلسطين ؟ ٠٠ أثناء القضية كان يقيم فى فرنسا تيودور هيرتزل (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) مراسل احدى الصحف الكبرى فى فينا وهو يهودى ، وقد هاله ما وجده من عداء لليهود على نحو لم يكن يتوقع وجوده بهذا القدر فى فرنسا ٠ فنظم الدعوة فى عام ١٨٩٧ الى عقد مؤتمر دولى يهودى ، فاجتمع فى مدينة بازل بسويسرا صيف ذلك العام ٠ وكانت تلك هى أول مرة بعد ثمانية عشر قرنا من التشرد ، يجتمع فيها ممثلون للشعب اليهودى لوضع خطط اقامة دولة لهم فى فلسطين ، وكان هذا مولد الحركة الصهيونية ٠ وقد اشتق الاسم من صهيون أحد الأسماء المتعددة للمدينة المقدسة التى يستخدمها المسيحيون والمسلمون كما يستخدمها اليهود ، واورشليم تسمى بالعبرية يروشاليم ، وبالعربية القدس ٠

وكان أهم جزء فى برنامجها هو المطالبة بالسماح لليهود الأوربيين بالاستيطان فى فلسطين ، غير أن الحكومة التركية كانت مشغولة تماما بمشاكل أخرى ، ولم تكن تميل بأى حال الى السماح بدخول أقليات جديدة ٠ وتثاقلت المفاوضات وكان يهود أوربا فى أشد الحاجة لملجأ يؤويهم، وخطرت على ذهن هيرتزل فكرة البحث عن مكان آخر للاستيطان ، فى قبرص مثلا ، أو سيناء ٠ وحين سرت الأنباء سنة ١٩٠٣ عن حوادث جديدة ضد اليهود فى عدة مدن روسية ، ذهب هيرتزل لزيارة الأراضى المرتفعة فى كينيا بالقرب من نيروبى حيث كانت الحكومة البريطانية قد عرضت عليهم الاستيطان هناك ٠

كانت كينيا بعيدة عن فلسطين ٠ ولكن كان من الممكن أن يوجد هناك اقليم مستقل تحت حكومة يهودية ٠ مات هيرتزل بينما الجدل

محتدم حول قبول كينيا او رفضها ، وانقسمت الحركة الصهيونية على الفور الى مجموعتين ، تمسكت الاغلبية بفلسطين دون غيرها ، بينما رأى الجانب المعارض بقيادة اليهودى البريطانى زانجويل اقامة وطن يهودى فى اى مكان • وفى الفترة بين ١٩٠٥ ـ ١٩١٥ قدم هذا الفريق سلسلة من الاقتراحات تتناول ليبيا ، والعراق ، وأمريكا الجنوبية، ولكن الاعتراضات اثيرت عليها جميعا واشتعلت الرغبة الملحة لدى اليهود الأوربيين فى ان يجدوا وطنا يعيشون فيه آمنين ولكنهم ظلوا يركزون انظارهم على فلسطين •

وفى مطلع سنة ١٨٨٠ كان المهاجرون الروس قد أقاموا فى أرض قريبة من يافا • ولكنهم لم يستطيعوا أن يحتفظوا بمزارعهم وكرومهم الا بمساعدة أسرة روتشيلد التى يضرب بثرائها المثل • وحوالى عام ١٩٠٥ تغيرت ملامح الصورة بطريقة ملحوظة وبدأ يظهر عنصر جديد من عناصر الاستعمار اليهودى فان فترة رد الفعل والرعب التى اعقبت ثورة سنة ١٩٠٥ فى روسيا دفعت قطيعا من المهاجرين الى فلسطين وقد كان لهم ايضا تأثيرهم على سياسة المنظمة الصهيونية ، فقد تحول المستعمرون الأول فى المدن والريف الى اصحاب أعمال وصار العرب عمالا عندهم . وكان محرما عليهم فى البلاد التى فروا منها العمل فى اى وظيفة باستثناء التجارة والمهن الفكرية •

وفى عام ١٩٠٨ انشئت أول مستعمرة زراعية فى كينيريت (Kinnereth) على بحيرة طبرية ، تحت اشراف الخبراء ، ودون اشتراك العمال العرب . وبعد ذلك بعام أنشا هارون دافيد جوردون وهو مثقف روسى مستعمرة ثانية مماثلة فى داجانيا قريبة من المزرعة الأولى •• واصبح جوردون الداعية الأكبر لانشاء كثير من المزارع الجماعية فى فلسطين •

وفى عام ١٩١٤ كان حوالى ٩٠ الف فدان قد استعمرت وهيئت للزراعة •

ولقد تمت هذه العمليات الاستعمارية فى ظل حكم السلطان الموجود فى القسطنطينية ، وتحت الرقابة الفعلية للشيوخ المحليين الذين لم يكونوا ينظرون الى المهاجرين نظرة ترحيب ، وحين نصل الى فترة ١٩١٤ - ١٩١٨ ، فسوف نرى أن اليهود - على الأقل فوق الورق - قد احتلوا فلسطين »

٩

مصر والسودان

على الرغم من أن قناة السويس والبحر الأحمر يشكلان حدود آسيا فان هناك عدة أسباب تدعو الى اعتبار مصر جزءا من هذه القارة • الأول أن وادى النيل فى الفترة ما بين ١٩٠٠ ـ ١٩١٤ قد ذهب فىّ القومية الى أبعد الحدود اذا قورن بغيره من الدول الاسلامية ، وقد استطاع بقوميته أن يلهم أجزاء كبيرة من آسيا وبخاصة الأراضى العربية المجاورة • الثانى أن مصر كانت خلال تاريخها تتطلع دائما الى آسيا • وكان حلقة الاتصال بين واحة النيل فى عهد الفراعنة والدول الأجنبية فيما عدا الطرق البحرية ـ هى القنطرة البرية التى يبلغ طولها ٤٢ ميلا بين البحر الأبيض والبحر الأحمر ، أكثر مما كانت الأرض الصحراوية فى ليبيا وفى الصحراء الغربية ، أو الأدغال العريضة ومناطق الأعشاب الممتدة الى السودان فى الجنوب •• ولقد كان يمكن حقا أن تختلف الأمور عما حدث وان يكن تاريخ البلد لا تحدده بحار الرمال الساخنة والهضاب الصخرية وسهول الأعشاب وحدها ، ومع ذلك فان الطبيعة ذاتها التى تجعلنا نعتبر مصر فى هذا الكتاب جزءا من آسيا • فقد كانت الحواجز الطبيعية القائمة على حدودها الغربية والجنوبية عاملا حاسما فى عزل مصر عن بقية أفريقيا ، وتوثيق علاقات المصريين مع الشرق أى مع آسيا •

ولولا مياه النيل الملينة بالطمى لصارت مصر نفسها بكل بساطة مجرد صحراء • ويسكن مصر الآن ٢٧ مليون نسمة محتشدين معا ان جزأ من ثلاثين من مساحة البلد هو وحده الذى جعله طمى

النيل أرضا خصبة ، وقد رسب النهر على طول العصور طبقة كثيفة من الطمى يبلغ سمكها حوالى ٢٢ قدما • وتبلغ مســاحة الدولة المصرية اليوم حوالى ٢٨٦ر١٩٨ ميلا مربعــا ، ولا يزرع من هذه المساحة ـ وهذا يحدث نتيجة للرى لأنه ليس ثمة أمطار ـ الا ١٤٠ ألف ميل مربع أى ما يقارب مساحة هولندا[١] • ويعيش المصريون على ضفاف النهر بمتوسط ١٣٠٠ شخص لكل ميل مربع • وهو أشد كثافة من جاوة التى يعيش على كل ميل مربع بها ٨٠٠ شخص ، وهى فى الحقيقة أشد مناطق العالم كثافة بالســكان • وان تكن المساحة المزروعة تمثل جزءا ضئيلا من أرض مصر فان الفلاحين وملاك الأرض فى هذا الشريط الضيق ينتجون ١ ٪ من الانتــاج العالمى للقمح ، والأرز ، والذرة ، ٥ ٪ من انتاج العالم من القطن ، ويمثل القطن ثلاثة أخماس الصادرات المصرية •

ولمصر ـ التى استمدت اسمها الأوربى من اللغة اليونانية ـ تاريخ طويل غير عادى .

فقد كان المصريون القدماء يكتبون على ورق صنعوه من لباب نبات البردى • وهذه الأوراق متينة للغاية ، وقد استخرجت كميات كبيرة بالكتابة التى عليها من تحت الرمال • وترجع المصـــادر التاريخية الى سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد ولقد تكونت استجابة الثقافة المصرية لتحدى النيل المتقلب عبر قرون عديدة وخلال حكم الأسرة الرابعة (٢٦٢٠ ـ ٢٥٠٠ قبل الميلاد) وصلت الحضارة المصرية الى مستوى لم يعرف تماما حتى الآن فقد أضفت فنونها «العصرية» الخلود على مصر • وتعتبر الأهرامات الحجرية الثلاثة فى جنوب شرقى القاهرة التى بنيت فى عهد هذه الأسرة شواهد خالدة على المقدرة الفنية والطبيعية لدى المصريين القدماء •

ولقد كان أول غزو كبير لا نعرف عنه شيئا أكثر من الأساطير هو غزو الهكسوس وهم قوم يركبون الخيل وقدموا من الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض المتوسط «

ولقد احتل الهكسوس دلتا النيل فى الفترة من ١٧٠٠ ـ ١٦٠٠ قبل الميلاد وأدخلوا استخدام الحصان الى مصر • وكانت فترة حكمهم بالنسبة للمصريين فترة قصيرة من العبودية • ولكن عندما غزا الفرس بقيـادة قمبيز مصر كانت علامات الموت قد بانت ، اذ حكم على المصريين من ذلك الوقت أن يخضعوا للحكم الأجنبى مدة عشرين قرنا • ففى عام ٣٣٠ قبل الميلاد ازاح المقدونيون بقيـادة الاسكندر الأكبر ، الفرس ، واستمر حكمهم ثلاثة قرون ، وان تكن قصة الحب الرومانتيكى بين كليوباترا الجميلة ويوليوس قيصر قد أنقذت حكمهم بعض الوقت فان مصر صارت فى سنة ٣٠ قبل الميلاد اقليما رومانيا • وحين غربت شمس الرومان ، أشرقت شمس العرب •• ففى عام ٦٤٠ ميلادية فتح العرب مصر ، وامتدت فيهـا جذور الاسلام ثم آتت ثمارها • ومن ذلك الوقت ، كان من أهم ما طرأ على مصر ، تأسيس مدينة القاهرة (سـنة ٩٦٨ م) التى سرعان ما أصبحت بعد ذلك هى العاصمة ، وانشاء جامعة الأزهر الشهيرة (عام ٩٧٠ ميلادية) • واقترب الحكم العربى الأصلى من نهايته فى منتصف القرن الثالث عشر ، حينما أصبح حـكم مصر فى أيدى المماليك ، الذين كانوا عبيدا أتراكا وجراكسة ، وصلوا الى أعلى الرتب فى الجيش العربى • وظلوا وحدهم فى حقيقة الأمر سادة البلد حتى عام ١٥١٧ ، حينما أصبحت مصر اقليما تركيا • وظلت كذلك طيلة أربعمائة عام •

ولكى نتبين السبب الذى جعل القومية الآسيوية تحقق تقدما كبيرا فى مصر عنها فى أى مكان آخر ، ينبغى أن نتعمق قليلا فى التاريخ المعقد •• فحينما قام نابليون بحملته على مصر سنة ١٧٩٨ بقصد استخدامها قاعدة للهجوم على البريطانيين فى الهند ، وصل الى مصر محمد على قائد الفرقة الألبانية • وكان محمـد على تاجرا للدخان فى قوله ، وفى عام ١٨٠٥ عينه السلطان واليا على مصر • ولكنه أصبح فى نظر الاتراك واليا عاصيا ، بعد أن قتل جميـع

المماليك فى حفلة أقامها تكريما لهم بقلعة القـــاهرة ، وتجاهل السلطان وصارت مصر في الواقع دولة مستقلة ، وانشا جيشـــا خاصا لنفسه ، وشيد أسطولا استخدمه فى مرات متعددة لمهاجمة تركيا ، ومن ناحية أخرى بدأت فى عهده زراعة القطـــن فى مصر (١٨١١ ـ ١٨٤٨) ٠٠ وكان أول حاكم فى الأسرة التى انتهت مع فاروق نهاية سيئة بقدر ما بدأت مع محمد على بداية رائعة •

وفى عهد الوالى محمد سعيد (١٨٥٤ـ١٨٦٣) ثم بقدر أكبر فى عهد اسماعيل (١٨٣٦ـ١٨٧٩) ، بدأ التـــجديد يدخل مصر ، واكتسبت مصر كثيرا من المهارات الفنية الغربية . ولكن ذلك كان خطرا على حريتها ، لأنه تم بمساعدة القروض الأوربية . ولقد افتتح أول خط حديدى بين القاهرة والاسكندرية ، وفى ٢٩ ابريـــل ١٨٥٩ بدأ العمل فى حفر قناة السويس وكان من الممكن أن تظل مصر محتفظة باستقلالها لو لم توثق حواليها ـ منذ عام ١٨٠٠ ـ جبال الاستعمار الحديث •

ولقد كان الاستعمار يتطلع الى الحصول على دخـــل كبير من افريقيا بصفة خاصة ـ وهى أرض أخرى كانت فى متناول الدول الاستعمارية وقد قسم أكثرها بين هذه الدول •

وأولئك الذين لا يعرفون تاريخ افريقيا الملطخ بالدم يمكن ان نذكر لهم انه فى عام ١٨٨٠ كان ٤ ٪ من أراضى تلك القـــارة فى أيدى الأوروبيين (الاقاليم الساحلية فى الجنوب والغرب) •

وبعد ذلك بحوالى ثلاثين عاما ـ أى فى عام ١٩١٢ ـ حينمـــا امتلكت ايطاليا طرابلس كان ٩٦ ٪ من افريقيا أقاليم مستعمرة • وكان الـ ٤ ٪ التى تقف حرة تتألف من اثيـوبيا وليبيريا ـ وهى جمهورية الزنوج الصغيرة التى أنشأتها أمريكا على ساحل العاج •

وحين نتحدث عن الاستعمار الحديث فانما نعنى به الاستعمار البريطانى والفرنسى خاصة لأن هاتين الدولتين أحـــرزتا نصيب

الاسد .. فحينما قسمت المستعمرات الألمانية السابقة فى معاهدة فرساى عام ١٩١٩ بين بريطانيا وفرنسا ـ وهى توجو والكميرون وجنوب غرب افريقيا ، وما يسمى الآن تنجانيقا ـ امتلكت بريطانيا وفرنسا ما يكاد يوازى ثلاثة أرباع القارة الافريقية .

فى حوالى عام ١٨٨٠ ظهر على الدولتين اهتمام مريب نحـو مصر .. واذا كانت فرنسا هى التى أنشأت قناة السويس . فان بريطانيا هى التى أخـذت البلد .. وبمقتضى الاتفـاق الودى الانجلو ـ فرنسى عام ١٩٠٤ ، أطلقت يد بريطانيا فى وادى النيل ، ومقابل ذلك حصلت فرنسا على نفس الوضـع فى مراكش .. واذ انتهى العمل فى قناة السويس عام ١٨٦٩ صارت جزءا حيويا فى الطريق البحرى الجديد بين بريطانيا والهند . كانت بمباى تبعد عن لندن حوالى ١٢٥٠٠ ميل بالطريق القديم حـول رأس الرجاء الصالح . ولكن القناة خفضت المسافة الى ٧٢٠٠ ميل .. ألم يكن طريق قناة السويس البالغ طوله ٩٣ ميلا عبر رمال مصر ضروريا لبريطانيا ؟ كانت القواعد البريطانية قد اقيمت على ذلك الطريق فى جبل طـارق (١٧٠٤) مالطـة (١٨٠٠) قبرص (١٨٧٨) وعدن (١٨٣٩) . ثم كان البريطانيون قد استثمروا قروضا كثيرة فى مصر .. وحينما وقع الخديو فى أزمة مالية عام ١٨٧٥ ، أخذوا كل حصصه من الأسهم التى يملكها فى شركة قناة السويس . وتبلغ حوالى ٥٠ ٪ من مجموع الاسهم . وكان هذا هو السبب الثـانى للتدخل أما السبب الثالث فهو سبب بسيط بالمثل .. القطـن والبترول .. وكانت مصر تنتج نصفا فى المائة من الانتاج العالمى فحسب ، ولم يكن لذلك قيمة حينذاك . وفى عـام ١٨٨١ كان البريطانيون قد ذهبوا الى مدى بعيد فى نظر عدد كبير من الضباط المصريين على الأقل . وحينما طرد أحدهم من الجيش ، ثاروا فى فبراير وأرغموا الحكومة على طرد وزير الحربية الذى كان واقعـا تحت النفوذ الاوروبى واحلال آخر وطنى محله .

قامت هذه الحركة بقيادة احمد عرابى (١٨٣٩ـ١٩١١) وكانت أول دليل واضح على وجود الوعى الوطنى الذى نفخت فيـــه من روحها أفكار جمال الدين الأفغانى الذى قدم من ايران الى القاهرة عام ١٨٧١ ودعا الى المقاومة ضد الغرب ، ونادى بتعلـــم أساليب الاوروبيين واستخدامها للتمكن من الدفاع عن مصر ضد الغرب •

وفى يناير ١٨٨٢ سلمت كل من لندن وباريس انذارا رسميا الى حكومة القاهرة بقصد تدعيم مكانة الخديو ضد الوطنيين •• وكما يحدث فى أكثر الأحوال لم يجد الاستعمار الأوروبى تأييدا فى مصر الا من الرجعيين وحـــدهم ، وكل ما فعله الانذار أن زاد من فضيحة الخديو ، فان الدولتين لم تتخذا أى اجراء • كان جلادستون رئيس الوزراء البريطانى (حزب الأحرار) يعارض الاستعمار بعكس دزرائيلى – ويعتبروه أمرا غير كريم – وكانت فرنسا تخشى حدوث تعقيدات فى الموقف الدولى •

وفى ١٢ يونية ١٨٨٢ وقعت أحداث فى الاسكندرية أسفرت عن قتل خمسين أوروبيا وقد اتهم كثير من المراقبين الخـــديو بتدبير الحادث على أمل ارغام بريطانيا على التدخل ومثل هـــذه الأساليب ليس بعيدا عن السياسة ، وعلى كل فقد قذف الاسطول البريطانى الاسكندرية بقنابله بدعوى تحطيـم الاستحكامات التى أقامها الوطنيون • وأنزلت القوات البريطانية واستولت على القناة •• وفى ١٣ سبتمبر هزمت القوات الوطنية بقيادة أحمـــد عرابى فى التل الكبير • واحتل الانجليز القاهرة بعدهـا بيومين ، ونفى عرابى الى سيلان ولم يعد الا عام ١٩٠١ ، وبقى البريطـانيون فى مصر •• ومن ١٨٧٣ ـ ١٩٠٧ أصبحت مصر شبه مستعمرة تحت حكم المعتمد والقنصل العام سير ايفيلين بارنج (لورد كرومر فيما بعد •• وكان كرومر واحدا من البنـاة الحقيقيين للامبراطورية ، الذين يعرفهم التاريخ وخاصة التاريخ الاستعمارى جيدا ، ومثـل هؤلاء لا يكونون بمعنى ما حكاما سيئين فهم يقومون بتنظيم مالية

الدولة ، وتجديد اقتصادياتها ، واستغلال مواردها الطبيعيـــة ، ويخلقون من مملكة اقطاعية متاخرة دولة موحدة حديثة نسبيا ، ولكنهم بوعى منهم او غير وعى يفعلون ذلك كله لخـــــدمة حاملى السندات والرأسماليين الأجانب ، دون أن يعيروا اهتمـــــاما الى الاشياء الضرورية كالتعليم مثلا أو الحكم المحلى ٠

وفى عهد كرومر تقدمت بريطانيا الى اعالى النيل فى السودان ـ الذى كان مستقلا حينذاك ـ وتمكن كتشنر ـ الذى هزم البوير فيما بعد فى جنوب افريقيا عام ١٩٠٠ ـ من تحطيم جيش خليفـــة محمد أحمد المهدى فى أم درمان ٠٠ وكان المهـــدى وهو من دنقله قد سعى الى تحقيق استقلال السودان عن مصر ٠ وقد أســـفرت الحملة التى بدأت ضد المهدى عام ١٨٨٣ عن قيام الحكم الثنـائى البريطانى المصرى فى السودان وهو ما يسمى كوندمنيوم . وكان ذلك معناه من الناحية الفعلية ، الحكم البريطانى ، وقد صار سير ريجينالد ويجنت ـ وهو بريطانى ـ أول حاكم عام للسودان ـ أى حاكما على بلد مساحته حوالى ٩٧٠ ألف ميـــل مربع ـ أى ما بين مساحة الهند واندونيسيا ـ وهو بلد السهول العشبية والغابات والبوص ٠٠ والى النيل يرجع الفضل فى أن ١ ٪ من محصول القطن العالمى يزرع بالسودان كما ينتج قدر كبير من الصمغ العربى ٠٠ ولقد كان لبريطانيا دافعان الى الاستيلاء على السودان أولهما الحاجة الى التحكم فى مياه النيل والثانى ابعاد منافسيهم فى أفريقيا ٠

يبلغ طول النيل حوالى ٤٠٠٠ ميل وهو ينبع من نهر كاجيرا الذى ينبع من منطقة تبعد ١٥٠ ميلا جنوبى خط الاســـــتواء فى الجبال الواقعة بين بحيرة تنجانيقا وبحيرة فيكتوريا نيانزا ، وقد اكتشفه ستانلى عام ١٨٧٦ ، ويتدفق نهر كاجيرا رأسا عبر بحيرة فيكتوريا الكبيرة الى السودان حيث يسمى بالنيل الابيض (بحر الجبل) ٠٠ أما النيل نفسه فيبدأ فى الخرطوم حيث يلتقى النيل

الأبيض بالنيل الأزرق (البحر الأزرق) وفى الشمال يلتقى بنهر عطبرة الذى يجلب معه مياه الفيضان التى تعتمد عليها حقول القطن .

ويبدأ النيل الأزرق وعطبرة كلاهما من اثيوبيا فى المنطقة المجاورة لبحيرة تانا ، حيث تسقط أمطار موسمية غزيرة فيما بين يونيو وأغسطس من كل عام .

ولقد كان النيل ـ أى ماء النيل ـ ملكا خاصا لمصر عام ١٨٨٠ ، وكان كل الماء ـ باستثناء ما يتبخر بتأثير الحرارة ـ يتدفق شمالا الى حقول القطن . وخلال تدفقه فى مجراه كله لم يكن هناك أحد فى أى مكان حاول ارجاعه واستخدامه لاخصاب أرضه . ولقد كان يمكن ألا تجد بريطانيا سببا لضم السودان الى مناطق نفوذها لو لم تظهر القوات المسلحة لدول أخرى فى الأفق . فقد وضح لهم أن ثمة ما يتهدد تدفق المياه نحو الشمال .. ألم يكن فى مقدور الفرنسيين والألمان والايطاليين والبلجيكيين أن يقيموا خزانات مثلما أنشأت بريطانيا خزان أسوان عام ١٩٠٢ ؟ كان القطن ، بل كان القطن المصرى كله ـ من وجهة النظر البريطانية مهددا بالخطر .. ولهذا وجب أن يكون وادى النيل كله فى أيدى البريطانيين .

ومع أن اثيوبيا ظلت بمنأى عن التدخل ، فانها أرغمت ـ مثل ايطاليا التى كانت قد احتلت اريتريا عام ١٨٨٢ ـ على الاعتراف بمنطقة النيل الازرق وعطبرة منطقة نفوذ بريطانية . وأصبحت أوغندا ـ التى كان الألمان أول من وصلها ـ بريطانية هى الاخرى وأبلغت بريطانيا ملك بلجيكا ـ الذى كان قد بسط نفوذه على الكونغو عام ١٨٨٥ ـ بأن النيل ينبغى أن يظل بريطانيا مثلما كان الكونغو بلجيكيا . ورسمت الحدود عبر مساقط المياه بين الكونغو والنيل الازرق . وقبلت جميع الدول مركز بريطانيا . الا أن امكانية الاضطراب الوحيدة نشأت عندما قام الفرنسيون بضغطهم من ناحية الغرب .. وكان كتشنر بعد سقوط الخرطوم قد تقدم بقواته

جنوبا على طول النيـــل الأزرق • وفى فاشودا (كودوك الآن فى تشاد) وجد قوة فرنسية بقيادة كابتن مارشان • وهناك وقعت أخطر أزمة فى العلاقات الفرنسية البريطانية فى السـنوات التى سبقت عام ١٩١٤ ولو لم تستسلم الحكومة الفرنسية التى كانت حينذاك مشغولة بعواقب قضية دريفوس لما أمكن تجنب الحرب بين الدولتين •

هذا بايجاز ، تاريخ السودان المصرى الانجليزى ـ الذى جذب اليه انتباه العالم مرتين بعد الحرب العالمية الثانية • المـرة الاولى حينما طالبت مصر بالسودان ، والثانية حينما حصل السودان على استقلاله عن مصر •

وقع فى مصر ـ التى نعود اليها الأن ـ حدثان هامان عـام ١٩٠٦ • الأول هو الاعتراف بشبه جزيرة سيناء اقليما مصريا بعد الانذار البريطانى الى تركيا • والثانى هو حادث دنشـواى الذى الهب المشاعر الوطنية • ويبدو أن بعض الضباط البريطانيين الذين كانوا يصطادون بالقرب من القرية ، قد أثاروا غضب الفلاحين •• وعندما مات أحدهم بضربة شمس وطالب القائد البريطانى العـام بعقوبة رادعة • وصدرت الأحكام بشنق أربعة من الفلاحين وجلد آخرين علانية • وقد وصف كرومر نفسه العقوبة بأنها قاسـية بغير موجب • وقد أعطت كراهية الاجانب للحادث مغزى خاصـا بعد ما استثيرت على هذا النحو • فقد تلاشى كل الاحترام الذى اكتسبه البريطانيون نتيجة بعض الاجراءات الديموقراطية نسبيا ، كما يتـلاشى الجليد تحت حرارة الشـمس . وتبع ذلك حمـلة صحفية عنيفة وتحول الشعور المبهم بالمقاومة الى حـركة تحريرية حقيقية . وفى أكتوبر عام ١٩٠٧ اشترك سعد زغلول (١٨٦٠ ـ ١٩٢٧) فى حزب الأمة . وفى ديسمبر تم احياء الحزب الوطنى ـ فى مناسبة عقد أول مؤتمر وطنى ـ بزعامة مصطفى كامل الذى

عاد حينذاك بعد أن أمضى بعض الوقت فى فرنسا للدراسة • وكان هذا الحزب أشد من غيره عداء للانجليز •

ولكن موت مصطفى كامل عام ١٩٠٨ ، كان خسارة عظمى لمصر التى بدأت تستيقظ ، ولقد كان على علاقات وثيقة مع لجنة تركيا الفتاة للاتحاد والتقدم • وقد أثرت جنـــازته ـ التى تحولت الى مظـــاهرة ـ على مشاعر المشاهدين حتى أعـــداء المصريين من الانجليز •

بعد ذلك ببضعة شهور عين الخديو فى رئاسة الوزارة بطرس غالى ، وهو قبطى من أتباع الكنيسة الارثوذكسية المصرية ، ولكنه كان أحد القضاة فى قضية دنشواى • وكان هذا الاستفزاز ـ وما كان يمكن الا أن يكون كذلك فى بلد اسلامى واقع تحت وطـــأة الاحتلال الأجنبى ـ علامة جديدة لانتصار حركة المقاومة فى البلاد كلها ولم تستطع اجراءات المقاومة ولا طرق الارهاب ، أن تنقـــذ بطرس غالى من القتـــل بيد أحد الوطنيين ، بل انها ساعدت على الايحاء بالاغتيال •

ولقد كان من جراء نمو الشعور الوطنى فى عهد حكومةجورست المعتدلة نسبيا (١٩٠٧ـ١٩١١) أن أدركت لنـــدن ضرورة تغيير سياستها • فعزل كتشنر الذى اشتهر فى حرب البوير ، وحـــرب السودان • ومع أن جورست اتخذ موقفا متشددا إزاء الاضطرابات الا أنه قدم بعض التنازلات • وهكذا قدم الى مصر فى صيف ١٩١٣ نظاما انتخابيا ديموقراطيا ، ودستورا حديثا • وفى عـــام ١٩١٤ اجتمع أول برلمـــان مصرى ، وكان يمـــكن للحـــركة الوطنيـــة أن تبلغ مرحلة النضوج حينذاك لو لم يرغم اشتعال الحرب العالميـــة الاولى بريطانيا على أن تحتفظ بقبضتها القوية على مصر • وفى ذلك الوقت ظهرت خطورة الهجوم الذى يمكن أن تشنه المانيا على قناة السويس من تركيا • ولم يكن الموقف فى مصر حينذاك يختلف عما

كان عليه اثناء الحرب العالمية الثانية . حين هددت دبابات رومل مصر من ناحية الغرب • وحل البرلمان مرة أخرى ، واضطر الخديو الى اعلان الحرب على تركيا • وفى ١٨ ديسمبر عام ١٩١٤ أصبحت مصر رسميا محمية بريطانية • وكان ذلك اســـما لحقيقة محزنة وكان يعنى أن مملكة لها بالاضافة الى اسمها حكومتها الخاصـــة وماليتها الخاصة ، لا تملك حق تصريف علاقاتها الدولية الخاصة ؛ وقد اختصيت الدولة المحتلة بتقرير كل ما يتعلق بعلاقاتهـــا مع الأجانب ـ الحرب أو التجارة مثلا ـ وهذا هو الموقف الذى وجدت مصر نفسها فيه فى نهاية الفترة الاولى من صحوة آسيا •

الجزء الثانى

افول الغرب

يصدر يوم الخميس ٣٠ ابريل سنة ١٩٦٤

١
كتاب
التحرير
السياسى

سقوط الامبراطورية

تأليف إدريس كوكس

ترجمة محمد رشاد حميش

يطلب من دار التحرير للطبع والنشر

كتب قادمة

الرأسمالية
أمس واليوم

أرض الخطايا
فى جنوب افريقيا

تجربة الثورة
فى الجزائر

الصين الجديدة

ثورة غينيا
والتقدم الاجتماعى

كفاح السود
ضد التفرقة فى أمريكا

رياح الثورة
فى أمريكا الجنوبية

تطور الفكرة الاشتراكية

القاموس السياسى

الثمن ١٠ قروش وخمسة قروش لقراء الجمهورية

مطابع شركة الاعلانات الشرقية